الفصل الثالث

الميدان الثقافي

الفصل الثالث

الميدان الثقافي

كان للشام وغيرها من أقاليم العالم الإسلامي الأثر البارز في نقل وتطوير الكثير من المظاهر الثقافية في مصر، ليس في العصر الأيوبي فحسب بل كان هذا التواصل مستمراً طيلة العصور الإسلامية. حيث كانت مصر قد شهدت نهضة تعليمية ثقافية في عصر الفاطميين[1]، الذين حرصوا على أن يجعلوا لمصر المكانة المرموقة في العالم الإسلامي، لكي يجذبوا أنظار المسلمين إليهم في وقت كانت الخلافة العباسية في بغداد تضعف شيئاً فشيئاً، وقد نجح الفاطميون فأصبحت القاهرة تنافس بغداد في الغنى والرفاهية، بل إن الأدب والفن والعلم ازدهرا ازدهاراً ملحوظاً، مما آذن بتحول القيادة الثقافية والفنية في القرون التالية إلى القاهرة[2].

أما في بلاد الشام فنجد اهتمام حكامها بالعلم في تلك الفترة واضحاً فيذكر أبو شامة أنه: " كان نور الدين محمود يحضر مشايخ الصوفية عنده، ويقربهم، ويدنيهم ويبسطهم، ويتواضع لهم، وإذا أقبل أحدهم إليه يقوم له مذ تقع عينه عليه، ويعتنقه ويجلسُهُ معه على سجادته، ويقبل عليه بحديثه. وكذلك كان أيضاً يفعل بالعلماء من التعظيم والتوقير والاحترام، ويجمعهم عند البحث والنظر"[3] وبذلك يمكن القول بأن الحكام كان لهم دوراً كبيراً في بعث الحركة العلمية في مصر والشام[4].

لقد جاءت الدولة الأيوبية في أعقاب الدولة الفاطمية، وكان صلاح الدين والأيوبيين يعرفون أهمية مصر وقدروا ما يمكن أن تقوم به في مناوأة الصليبيين، لهذا كان صلاح الدين حريصاً على تقوية مصر وتدعيمها داخلياً وخارجياً، فكانت الثقافة والاهتمام بها إحدى هذه الدعائم، التي عبّرت عن روح صلاح الدين ومناهجه الإصلاحية، لأنه كان يرى في مصر خط الدفاع الثاني ضد الصليبيين، بعد دمشق المواجهة لهم[5].

لهذا ازدهرت الحركة الثقافية في مصر في عصر الأيوبيين ازدهاراً عظيماً، حيث مثل هذا العصر ثورة من الناحية الفكرية وإحياء للتراث العربي الإسلامي، والذود عنهما ضد تيارات الفكر الأجنبي، والدفاع عن ذخائره ضد عوامل الضياع والانحلال والضعف، والتي بدت في صورة جمع للذخائر في موسوعات كبيرة في الفقه أو اللغة والأدب[6]. فكانت حقبة بني أيوب في مصر والشام من أخصب الحقب في التأليف والتصنيف[7] فكان عصرهم عصر إحياء للفكر والثقافة والسياسة، وتمثل هذا الإحياء في بعث العلوم الشرعية والاهتمام بالقرآن والحديث

([1]) الخربوطلي، مصر العربية، 351.

([2]) القلقشندى: صبح الأعشى، 3/348-349 ؛ سلام: الأدب في العصر الأيوبي، 137.

([3]) الروضتين، 1/106.

([4]) إبراهيم فرغلي: الحركة التاريخية في مصر وسوريا خلال القرن السابع الهجري، ط1، دار العربي للنشر والتوزيع، (القاهرة، 2000)، 59.

([5]) سلام: الأدب في العصر الأيوبي، 137-138، الأدب في عصر صلاح الدين، 156.

([6]) عمر موسى باشا: أدب الدول المتتابعة عصور الزنكيين والأيوبيين والمماليك ، ط1، دار الفكر الحديث ، (القاهرة، 1967)، 134؛الخربوطلي: مصر العربية، 351؛ ناظم رشيد: " التعليم في ظل الدولتين الزنكية والأيوبية في الشام"؛ مجلة آداب الرافدين، العدد (10)، كلية الآداب، جامعة الموصل، (1979)،273.

([7]) ناظم رشيد: "النشاط العلمي والأدبي في عهد الأسرة الأيوبية"، مجلة آداب الرافدين، العدد (8)، كلية الآداب، جامعة الموصل، (1975)، 445.

اهتماماً بالغاً. وقد اشتهر السلاطين الأيوبيين بميلهم الفطري إلى العلم، فقربوا إليهم العلماء والفقهاء والشعراء، وحضروا مجالسهم، وشاركوا في أبحاثهم، وناظروهم في مسائلهم، واستدعوهم إلى قصورهم لمسامرتهم ومنادمتهم فلا نعجب والحالة هذه إذا ظهر من بني أيوب أعلام في مختلف ضروب المعرفة فكان منهم العالم والأديب والمؤرخ والشاعر[1]. وبذلوا كل ما في وسعهم لتوفير الأساتذة من أقطار العالم الإسلامي شرقاً وغرباً، وكانت المدارس الكثيرة التي سارع الأيوبيين بإنشائها وسيلة أخرى من وسائل جذب خيرة العلماء من البلاد الإسلامية وبخاصة من الشرق ليتولوا التدريس فيها ويحققوا لها النجاح الذي سبق وحققوه من خلالها في الشرق[2]. فكانت الشام وأبنائها واحدة من هذه البلدان الشرقية التي رفدت مصر بالعلماء في هذا العصر. وخير مثال على ذلك هو الحافظ السلفي احمد بن محمد المتوفى سنة (576هـ/1180م) الذي وفد من بلاده في فارس إلى الشام ثم القاهرة واستقر بالإسكندرية وله فيها مدرسة مشهورة عرفت بالحديث واجتمع إليه الشعراء والأدباء المشهورين[3].

لم تتغير مصر جوهرياً في عهد صلاح الدين عما كانت عليه سابقاً، وكانت إصلاحاته السياسية والإدارية ومحاولة رفع إمكانيات الناس عن طريق العلم والإكثار من المدارس وجلب علماء من الأقطار المجاورة وتشجيعهم على الإقامة بمصر والتأليف بها، وتخريج جيل جديد من المصريين قادر على تخليص العالم الإسلامي من الاحتلال الصليبي[4]، بالإضافة إلى العمل العمل على صيانة المناهج التعليمية وتوحيدها، ونشر مبدأ تكافؤ الفرص التعليمية وربط الأمة بواقعها من خلال عقيدتها الصحيحة[5]. لتشهد مصر بذلك عصر إفاقة من القهر والضعف الذي فرضته عليهم ظروف التخلف الاجتماعي والسياسي التي كانت تحكم مصر، وكان الكاتب والوزير القاضي الفاضل راعياً لهذه النهضة الأدبية الثقافية التعليمية[6].

وانسجاماً مع ما تقدم لابد من القول أن صلاح الدين كان مهتماً بالعلم والعلماء ومجالستهم وتقريبهم منه ورعايتهم، فسمع الحديث الشريف وإخباره، وكان حافظاً للقرآن وصاحب ذوق لطيف في رواية الشعر وحفظه[7]، فيذكر العماد الأصفهاني عنه أنه: "كان يؤثر سماع الحديث بالأسانيد، وتكلم العلماء عنده في العلم الشرعي المفيد، وكان لمداومة الكلام مع الفقهاء، ومشاركة القضاة في القضاء، أعلم منهم بالأحكام الشرعية، والأسباب المرضية والأدلة المرعية وكان من جالسه لا يعلم أنه جليس السلطان، بل يعتقد أنه جليس أخ من الأخوان..."[8]. فنشر العلم في البلاد المصرية من علوم دينية ودنيوية. وأصبحت القاهرة إلى جانب بغداد مركزاً رئيسياً لجميع العلوم، واستمر هذا الاهتمام بالعلم والعلماء في الفترات اللاحقة فهذا الملك الكامل نراه يؤسس الكثير من المعاهد العلمية بمصر[9]، وكان يجالس العلماء في ليالي الجمعة لسماع حديثهم والمناقشة معهم، "فينصب لهم أسرة ينامون عليها بجانب سريره، ليسامروه"[10].

([1]) ابن شداد: النوادر، 7، 9-10، ؛ سلام: الأدب في العصر الأيوبي، 75 ؛ حسن شميساني: مدارس دمشق في العصر الأيوبي، ط1، دار الآفاق الجديدة، (بيروت، 1983)، 268 ؛ رشيد: النشاط العلمي والأدبي، 445 ؛ الصائغ: عصر الملك الكامل، 172.

([2]) المقريزي: الخطط ، 438/3؛ بهجت: أثر الحضارة السلجوقية، 59/1-60.

([3]) الذهبي: سير ، 4/13، 17؛ سلام: الأدب في العصر الأيوبي، 53.

([4]) المقريزي: الخطط، 250/1 ؛ سلام: الأدب في العصر الأيوبي، 138.

([5]) الصلابي: صلاح الدين الأيوبي، 290.

([6]) سلام: الأدب في العصر الأيوبي، 5؛ حمادة: الوثائق السياسية، 70/4.

([7]) البنداري: سنا البرق، 183؛ أبو شامة: الروضتين، 2/ 295- 296.

([8]) الفتح القسي، 344.

([9]) أبو شامة:الروضتين،296/2؛ الاسكندري وآخرون: تاريخ مصر،253؛ تشنر وآخرون:تاريخ العالم العربي، 161.

([10])الصفدي: الوافي، 158/1 ؛ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، 172/5-173.

وقد أدى نظام اللامركزية الذي اتبعه الأيوبيين بمصر إلى ظهور مراكز ثقافية وفنية متعددة، كالقاهرة والإسكندرية ودمياط وغيرها من البلاد المصرية، فمصر بحكم مركزها أولاً، وبحكم الزعامتين الدينية والأدبية اللتين ورثتهما عن بغداد ثانياً، أصبحت محطاً للكثير من علماء المسلمين على اختلاف أقطارهم وأجناسهم، بحيث كانت الرحلة إليها أكثر من الرحلة إلى غيرها ، فكانت الشام واحدة من هذه البلدان التي وجهت رحلاتها إلى مصر بحكم قربها ووحدة الإدارة والحكم في العصر الأيوبي، فنرى في التراجم فلاناً المصري المقدسي، وآخر المصري الشامي[1]. بحيث أصبحت مصر ملاذ الحضارة العربية وموئل علومها وفكرها وآدابها، فعنت بإنشاء المدارس، واستقبال علماء الأقطار –ومن أهمها الشام- وأسندت إليهم كثيراً من المناصب العلمية وأحياناً المناصب الوزارية، فعلى سبيل المثال كان لصلاح الدين وزيران: القاضي الفاضل والعماد الأصفهاني، الأول شامي، والثاني عراقي الثقافة أصبهاني المولد[2]. كذلك ازدانت هذه الحاشية الجليلة بالقاضي بهاء الدين بن شداد، الذي لايبرح السلطان في مواطن السلم والحرب ولا يغفل يوماً عن مطالعته الحديث والتفسير[3].

وكان العلماء يتنقلون بين البلاد الإسلامية –ومنها الشام ومصر زمن الأيوبيين- ويلقون دروسهم حيث يذهبون في حلقات الدرس بالمساجد أو المدارس[4]، وقد أثرت هذه الرحلات على على الحياة الفكرية في الحواضر الإسلامية، وجعلت المسلمين وأمرائهم يوجهون عنايتهم إلى هؤلاء العلماء الرحّل فيبنون لهم الربط والمدارس والنزل التي تأويهم وتوفر لهم الراحة وتكفل سبل الرزق ليتفرغوا للدرس والعلم، غير منشغلين بأمور العيش والكسب[5].

وإن غنى المكتبة العربية بإنتاجها الضخم في ذلك العصر، ليدلنا على حركة علمية ناشطة، وثقافة ممتازة، تنوعت فروعها، وحمل لواءها أعلام نابغون، من فقهاء على المذاهب الأربعة إلى نحاة، ولغويين، وعروضيين، ومحدثين، ومفسرين، وقراء ومتكلمين، ورجال أدب، وبلاغة، ومؤرخين، وجغرافيين، وعلماء منطق، وفلسفة وسياسية، وطب، ورياضة، وموسيقى، وفلك. وساعد على ازدهار هذه الحركة انتشار دور العلم في مصر وما فيها من خزائن الكتب، بالإضافة إلى ثقافة الحكام العالية، التي أحاطت نفسها بطبقة من المثقفين[6]. وهكذا عاشت مصر مصر في العصر الأيوبي، عصر إشعاع متوّهج ثقافياً ودينياً وتطورت الفنون تطوراً حراً[7].

والمعروف إن الدراسات الإسلامية تنقسم إلى قسمين: العلوم الطبيعية والعلوم النقلية - فالعلوم الطبيعية تعتمد على الملاحظة والإدراك الحسي والاستنتاج لذا أطلق عليها العلوم الفلسفية أو العقلية- أما العلوم النقلية فتعتمد على الوازع الديني وتشتمل على كل فروع المعرفة التي تتعلق بالقرآن مثل التفسير والقراءات والحديث والتصوف وعلوم اللغة وآدابها[8].

أولاً: العلوم الدينية (الشرعية)

يقصد بالعلوم الدينية علوم القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف والفقه وأصوله وما له صلة بها من علوم شكلت مجتمعةً محور النشاط العلمي والتعليمي في عالمنا الإسلامي منذ أقدم

([1]) ابن واصل:مفرج الكروب،3/300-301؛ بهجت: أثر الحضارة السلجوقية،82/1؛ حمزة: الحركة الفكرية، 21.

([2]) ضيف: تاريخ الأدب العربي، 85.

([3]) ابن شداد: النوادر، 7 ؛ حمزة: الحركة الفكرية، 150.

([4]) محمد فريد أبو حديد: امتنا العربية، دار المعارف، (القاهرة، 1961)، 151.

([5]) أبو حديد: أمتنا العربية، 153 ؛ سلام: الأدب في العصر الأيوبي، 87.

([6]) بدوي: الحياة العقلية، 4-5.

([7]) شاندور: صلاح الدين الأيوبي، 121.

([8]) العريني: الشرق الأدنى، 222/1.

العصور ويقف القرآن الكريم على رأس تلك العلوم فحظي بالدرس والبحث من حيث قراءته وتفسيره وغريبه ومجازه وأمثاله ومفرداته ولم يكن هذا الاهتمام مقتصراً على عصر دون سواه وهكذا هو شأن العصر الأيوبي الذي اهتم قادته بالعلماء وطلاب العلم على حد سواء وصولاً إلى الغاية المنشودة ألا وهي بناء الدولة الإسلامية على أسس علمية وفكرية رصينة[1].

لقد شهدت مصر تحت الحكم الأيوبي قدوم أعداد كبيرة من العلماء إليها من مختلف بقاع العالم الإسلامي وبالذات من الشام ومارسوا نشاطهم العلمي بكل حرية وأغنوا المسيرة العلمية بكل ما يمتلكونه من علوم ومعارف جعلت من هذا البلد قاعدة للجهاد يواجه المد الصليبي[2].

1. علوم القرآن الكريم:

لقد اعتنى المسلمون بالقرآن الكريم عناية كبيرة لكونه دستورهم ومصدرهم الأول في التشريع[3]. ومن علوم القرآن التي كان للشام والشاميين دوراً في تدريسها في مصر في العصر الأيوبي، علم القراءات وعلم التفسير.

أ. علم القراءات:

تعرف القراءات لغةً على أنها: جمع قراءة[4]، أما اصطلاحاً فهي: "اختلاف ألفاظ الوحي المذكور في كتابة الحروف أو كيفيتها من تخفيف أو تثقيل وغيرهما"[5].

لقد تعددت القراءات القرآنية تبعاً لقول الرسول محمد (ﷺ): "إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فأقرؤوا ما تيسر منه"[6]، فكان هناك اختلاف في عدد القراءات، فبعضهم جعلها سبعة، وجعلها البعض الآخر عشرة ثم أضيف عليها أربع لكنها عدت شاذة وبقيت القراءات السبعة هي المتداولة، ففي مكة قراءة عبد الله بن كثير الداري (ت 120هـ/737م)، وفي المدينة قراءة نافع بن عبد الرحمن (ت 169هـ/785م) وفي الشام قراءة عبد الله اليحصبي (ت 118هـ/736م)، وفي البصرة قراءة أبي عمرو بن العلاء (ت 154هـ/770م)، ويعقوب بن اسحق الحضرمي (ت 205هـ/820م) وفي الكوفة قراءة عاصم بن أبي النجود (ت 127هـ/744م)، وحمزة الزيات (ت 156هـ/772م)[7]. وقد عرفت مصر قراءة ورش، وهو أبو سعيد عثمان بن سعيد بن عبد الله بن عمرو بن سليمان بن إبراهيم، الذي أخذ القراءة عن نافع بن عبد الرحمن الذي بعثه الخليفة عمر بن عبد العزيز (99-101هـ/717-719م)، إلى مصر ليعلم أهلها قراءة القرآن، ففعل وكان ورش

([1]) ابن خلدون: المقدمة، 215، 473-513 ؛ باشا: أدب الدول المتتابعة، 135.

([2]) مشتاق كاظم عاكول المياحي: الحركة الفكرية في مصر في العصر الأيوبي (567-648هـ/1171-1250م)، أطروحة دكتوراه غير منشورة، (كلية الآداب، جامعة بغداد، 2006)، 91.

([3]) خلف: الحياة العلمية، 19 ؛ منال محمود رشيد أحمد الزبيدي: الرحلات العلمية من بلاد الشام واليها في العصرين الزنكي والأيوبي، رسالة ماجستير غير منشورة، (كلية الآداب، جامعة الموصل، 2006)، 30.

([4]) ابن منظور: لساب العرب، 3563/40.

([5]) محمد بن عبد الله الزركشي: البرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، (القاهرة، 1957)، 318/1 ؛ جلال الدين عبد الرحمن السيوطي: الراتقان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (القاهرة، 1975)، 273/1.

([6]) أبو الحسين بن الحجاج مسلم القشيري: صحيح مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، (بيروت، 1954)، 560/1 ؛ محمد بن محمد بن الجزري: النشر في القراءات العشر، تصحيح: علي محمد الضّباع، دار الكتب العلمية، (بيروت، د.ت)، 8/1، 19.

([7]) محمد بن إسحاق بن النديم: الفهرست، تحقيق: رضا تجدد بن علي المازارني، (طهران، 1971)، 30-32 ؛ ابن خلدون: المقدمة، 474 ؛ ابن الجزري: النشر، 8/1-9 ؛ صبحي الصالح: مباحث في علوم القرآن، ط7، دار العلم للملايين، (بيروت، 1972)، 248-250.

من تلامذته، وانتهت إليه رياسة الإقراء بمصر في زمانه وكثر أتباعه وتلاميذه وتوفي ورش بمصر سنة (197هـ/812م)[1].

إن نظام التعليم في مصر والشام في ذلك العصر، كان يبدأ بالقرآن الكريم أولاً، حيث كان يوجه المتعلم في طفولته إلى المكتب، فيلقن القرآن، ويدرس قراءاته التي هي إحدى علوم القرآن[2]. وقد زاول القراء عملهم بصفة أساسية في المدارس والمساجد والأضرحة وغيرها من المؤسسات الدينية[3].

وقد بلغ علم القراءات بمصر حد القمة مع انتشار حركة إنشاء المدارس الأيوبية[4]، ذات التأثير القادم من الشام، وقد زخرت بلاد الشام في العصر الأيوبي بالكثير من مشاهير القراء الذين ساهموا في حركة الإقراء والتأليف في القراءات[5]، ومما يجدر ذكره هو أن قسماً من هؤلاء القراء كانوا قد انتقلوا إلى مصر تحت تشجيع الأيوبيين فاظهروا هناك إمكانياتهم الإقرائية الكبيرة[6]. ومن هؤلاء القراء:

- أبو حفص عمر بن نعمة بن يوسف بن سيف بن عساكر المقدسي المعروف بالبناء، قدم مصر "وأقرأ القران الكريم مدة طويلة بمسجده بسوق وردان بمصر وحكي عنه من صبره على ملازمة الطلبة نهاراً وليلاً ما يستغرب مع علو سنه"[7].
- أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن مفرج النابلسي المقريء الصوفي "وكان رجلاً صالحاً متقللاً من الدنيا كثير التلاوة للقرآن الكريم، وأمّ بالناس بالمدرسة المعروفة بمنازل العز على شاطئ النيل المبارك مدة" توفي سنة (ت 600هـ/1203م)[8].
- الوزير الجواد نجم الدين بن مجاور يوسف بن الحسين، ألتزم بقراءة القرآن وإقراءه منذ نشأته في مكة بعد أن ترك دمشق وجاور البيت الحرام لتعلم القراءات، ثم عاد إلى دمشق واتخذ مكتباً يعلم فيه الصبيان قرب جامع دمشق، وعلم أبناء الأمراء وكبار الدولة، ثم استدعاه السلطان صلاح الدين إلى مصر ليعينه معلماً لابنه العزيز توفي سنة (601هـ/1204م)[9].
- أبو الحسن علي بن فاضل بن سعد الله بن حمدون الصوري، قرأ القرآن الكريم بالقراءات ألثمان على الشيخ أبي القاسم أحمد بن جعفر بن أحمد بن إدريس الشافعي، وتصدر للإقراء بالجامع العتيق (جامع عمرو بن العاص) بمصر توفي سنة (602هـ/1205م)[10].
- أبو موسى عيسى بن يوسف بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسي نزل في حلب "وقرأ فيها ثم سكن مصر مدة وأقرأ بها ثم سافر إلى الإسكندرية"، توفي سنة (613هـ/1216م)[11].

([1]) محمد بن محمد بن الجزري: غاية النهاية في طبقات القراء، عنى بنشره: ج. برجستر، ط2، دار الكتب العلمية، (بيروت، 1980)، 502/1 ؛ حمزة: الحركة الفكرية، 231.

([2]) فرغلي: الحركة التاريخية، 70.

([3]) الباشا: الفنون الإسلامية، 829/2.

([4]) أيمن شاهين سلام: المدارس الإسلامية في مصر في العصر الأيوبي ودورها في نشر المذهب السني، أطروحة دكتوراه غير منشورة، (كلية الآداب، جامعة طنطا، 1999)، 183.

([5]) خلف: الحياة العلمية، 20.

(6) ابن شداد: النوادر، 9 ؛ خلف: الحياة العلمية، 20.

(7) المنذري: التكملة، 165/1-166.

(8) المنذري: التكملة، 37/3-38.

(9) ابن سعيد: الغصون اليانعة، 19.

(10) المنذري: التكملة، 151/3-152 ؛ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، 10/5.

(11) الذهبي: تاريخ الإسلام، 157/44-158.

- أبو الحسن مرتضى بن حاتم بن المسلم بن أبي العرب ألحارثي المقدسي، قرأ القران الكريم بالقراءات بمصر وكتب الكثير بخطة، توفي سنة (634هـ/1236م)[1].
- أبو الحسن علي بن علي بن عبد الله بن ياسين العسقلاني المعروف بابن البلان تصدر للإقراء بالجامع العتيق بمصر، توفي سنة (636هـ/1238م)[2].
- محمد بن علي النصيبي الصوفي، تعلم القراءات بنصيبين، ثم نزل بعلبك وأصبح شيخ الإقراء بجامعها ثم انتقل إلى مصر فقرأ بها القراءات، فكان بديع النظم عارفاً بالقراءات يحل القصيد حلاً متوسطاً، توفي في بعلبك سنة (695هـ/1295م)[3].

ب. علم التفسير:

يُعرف التفسير على أنه البيان والكشف والإظهار[4] أما اصطلاحاً: فهو علم يختص في البحث في أحوال القران من حيث دلالته بقدر الطاقة البشرية وبحسب ما تقتضيه القواعد العربية وأصول الكلام وأصول الفقه[5].

لقد نزل القرآن الكريم بلغة العرب وحسب بلاغتهم، فكانوا يفهمونه ويعرفون معانيه[6]، ويلجأ الصحابة إلى الرسول (ﷺ) في تفسير الآيات التي يصعب فهمها بوصفه المفسر الأول، قال تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[7]. زادت الحاجة إلى التفسير بعد أن دخل الإسلام عناصر غير عربية، بالإضافة إلى تعدد لهجات القبائل واختلافها، فوقع ذلك على عاتق الصحابة والتابعين بعد وفاة النبي(ﷺ)[8].

وأخذ التفسير اتجاهين، الأول: التفسير بالمأثور ويسمى بالمنقول أو بالرواية أيضاً، أما التفسير الثاني: فهو التفسير بالرأي أو بالاجتهاد أو الدراية[9].

كانت حركة التفسير ناشطة في مصر والشام في العصر الأيوبي، وكان التفسير مادة أساسية تدرس في المدارس التي قامت في مصر، وقد زخرت الشام في ذلك العصر بالعديد من المفسرين وانتاجاتهم في هذا المجال[10]. وقد انتقل عدد من المفسرين إلى مصر وزاولوا نشاطهم هناك ومنهم:

- زين الدين أبو الحسن علي بن إبراهيم بن نجا الحنبلي الدمشقي المعروف بابن نجا، اشتغل بالتفسير والوعظ، سافر إلى بغداد وسمع علم التفسير من مشايخها ووسع

---

(1) المنذري: التكملة، 233/6-234.

(2) المنذري: التكملة، 315/6-316 ؛ ابن الجزري: طبقات القراء، 554/1-555 ؛ السيوطي: حسن المحاضرة، 499/1.

(3) محمد بن محمد الذهبي: معرفة القراء الكبار على الطبقات والاعصار، تحقيق: محمد سيد جاد الحق، ط1، مطبعة دار التأليف، (مصر، 1967)، 567/2-568 ؛ ابن الجزري: غاية، 244/2-245.

(4) ابن منظور: لسان العرب، 3412/38 ؛ محمد بن يعقوب الفيروز آبادي: القاموس المحيط، المؤسسة العربية للطباعة والنشر، (بيروت، د.ت)، 111/2 ؛ الزركشي: البرهان، 13/1؛علي بن محمد الجرجاني: التعريفات، الدار التونسية للنشر، (تونس، 1971)، 34 ؛ محمد حسين الذهبي: التفسير والمفسرون، دار القلم، (بيروت، 1987)، 13/1.

(5) السيوطي: الإتقان، 192/4، 194 ؛ حاجي خليفة: كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، دار العلوم الحديثة، (بيروت، د.ت)، 27/1.

(6) ابن خلدون: المقدمة، 475.

(7) سورة النحل: آية 44.

(8) صابر حسن محمد أبو سليمان: مورد الضمان في علوم القرآن، ط1، الدار السلفية، (بومباي، 1984)، 197 ؛ الذهبي: التفسير، 67/1 ؛حسن: تاريخ الإسلام،418/4؛ الزبيدي: الرحلات العلمية، 48.

(9) ابن خلدون: المقدمة، 475؛ أحمد أمين: فجر الإسلام، ط10، دار الكتاب العربي،(بيروت، 1969)، 200.

(10) بدوي: الحياة العقلية، 108.

معلوماته في هذا المجال، ثم سكن مصر، ولما قامت دولة الأيوبيين صارت له منزلة جليلة عند السلطان، الذي كان يحضر مجلسه وأولاده من بعده، وكانت تجري بينه وبين شهاب الدين محمد بن محمود الطوسي المناظرات العجيبة، وانتفع الناس بعلمه، توفي في مصر سنة (599هـ/1202م)[1].

- عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام الدمشقي، الملقب بسلطان العلماء، برع في علوم دينية عدة ومنها التفسير، فقد رحل إلى بغداد للقاء كبار المفسرين هناك، ثم عاد إلى دمشق وتولى الخطابة والإمامة بالجامع الأموي وقد أجاد علم التفسير حتى صار أعلم أهل عصره ثم رحل إلى مصر وتولى خطابة جامع عمرو بن العاص والتدريس في المدرسة الصالحية وله مؤلفات في مجال علم التفسير منها كتاب (بحار القران) و(التفسير الكبير)، توفي ابن عبد السلام في مصر سنة (660هـ/1261م)[2].

2. علم الحديث النبوي الشريف:

يعرف الحديث لغةً على أنه الأخبار وهو اسم من التحديث[3]. أما اصطلاحاً: فهو أقوال الرسول (ﷺ) وأفعاله وتقريراته[4].

وقد اعتنى الصحابة والتابعون بالحديث النبوي عناية كبيرة من حيث الحفظ والشرح والتثبت من صحة سنده، لان الحديث هو مصدر التشريع الثاني باتفاق جميع المذاهب الإسلامية[5].

كانت المدينة المنورة الموطن الأول الذي نشأ به علم الحديث، لذلك كان على طلبة العلم أن يرحلوا إليها[6]، لتشهد بلاد الشام حركة واسعة في الرحلة لطلب علم الحديث من منبعه في المدينة المنورة[7]. وحظيت مصر بجماعة من الذين اهتموا بنقل الحديث الشريف وتنقيحه والتصنيف فيه، وبقيت حركة الحديث تزداد في مصر يوماً بعد يوم وعلى مدى العصور التي مرت بها البلاد[8]. ومنها العصر الأيوبي حيث ازداد الاهتمام بالحديث الشريف، بسبب اهتمام السلاطين والأمراء الأيوبيين بهذا العلم[9]، تلبيةً لحاجة المجتمع الإسلامي في مصر والشام،

([1]) أبو شامة: الذيل، 54-55 ؛ محمد بن محمد الذهبي: المختصر في المحتاج إليه، تحقيق: مصطفى جواد، مطبعة المعارف، (بغداد، 1951)، 3/118-119 ؛ ابن رجب: الذيل، 1/436-437 ؛ محمد بن علي الداودي: طبقات المفسرين، تحقيق: علي محمد عمر، مكتبة وهبة، (مصر، 1972)،1/383-385.

([2]) أبو شامة: الذيل، 330 ؛ موسى بن محمد بن أحمد اليونيني: ذيل مرآة الزمان، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، العثمانية، (حيدر آباد، 1954)، 1/505-506 ؛ الذهبي: العبر، 3/299 ؛ محمد بن شاكر الكتبي: عيون التواريخ، تحقيق: نبيلة عبد المنعم داؤد فيصل السامر، دار الحرية للطباعة، (بغداد، 1984)، 20/274 ؛ الأسنوي: طبقات، 13/197-199 ؛ ابن كثير: البداية والنهاية، 13/235.

([3])ا بن منظور: لسان العرب، 9/796 ؛ خليفة: كشف الظنون، 1/635.

([4]) محمد بن أحمد الخوارزمي: مفاتيح العلوم، إدارة المطبعة المنيرية، (القاهرة، 1923)، 7 ؛ محمد علي الفارقي التهانوي: كشاف اصطلاحات الفنون، تحقيق: لطفي عبد البديع، ترجمة النصوص الفارسية: عبد المنعم محمد حسنين: مطبعة السعادة،(مصر، 1963)، 1/37-38 ؛ خليفة: كشف الظنون، 1/635-636.

([5]) محمد بن يوسف العامري: الإعلام بمناقب الإسلام، تحقيق: أحمد عبد الحميد غراب، دار الكتاب العربي، (القاهرة، 1967)، 36 ؛ سعيد عبد الفتاح عاشور وآخرون: دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية العربية، ط2، منشورات ذات السلاسل، (الكويت، 1986)، 49-50.

([6]) خليل إبراهيم السامرائي: دراسات في تاريخ الفكر العربي، مطبعة جامعة الموصل، (الموصل، 1983)،143.

([7]) الزبيدي: الرحلات العلمية، 54.

([8]) حمزة: الحركة الفكرية، 175 ؛ سلام: المدارس الإسلامية، 182.

([9]) أبو شامة: الروضتين، 2/295-296 ؛ باشا: أدب الدول، 138 ؛ خلف: الحياة العلمية، 34.

لمواجهة عدو يتربص بهم الدوائر، ويعبث بعقيدتهم، ولتحريض المؤمنين على قتالهم[1]. فقد ذكر ابن شداد أن السلطان صلاح الدين "كان شديد الرغبة في سماع الحديث... وكان رحمه الله يحب أن يقرأ الحديث بنفسه... وإذا بلغه عن شيخ رواية عالية... استحضره وسمع عليه وأسمع أولاده ومماليكه وأمرهم بالقعود عند سماعه إجلالا له..."[2]. فالسلطان كان قد ترعرع في الشام الشام التي عرف عنها اهتمامها بالحديث وتدريسه لاسيما وأن نور الدين محمود كان أول من شيد دار الحديث في تاريخ الإسلام[3]. وتأثرت مصر بهذا العمل فإنشاء الملك الكامل أول دار حديث بمصر سنة 621هـ/1224م[4]. وقد عرف عنه شغفه بسماع الحديث النبوي، حتى صار أحد المحدثين في مصر[5]. ومن أبرز المحدثين الشاميين الذين ذهبوا إلى مصر وعملوا فيها:

- أبو المظفر المرتضى عبد الله بن محمد بن الحسن الدمشقي المعروف بابن عساكر، وكان قد جمع أربعين حديثاً، فحدث بها بمصر والإسكندرية، توفي سنة (591هـ/1194م)[6].
(591هـ/1194م)[6].
- أبو الفتح نصر بن مقلد القضاعي الشيزري، سمع الحديث بدمشق، ثم انتقل الى مصر فسكنها وحدّث ودرس بالقرافة بمدرسة الشافعي، توفي سنة (598هـ/1201م)[7].
- أبو محمد عبد الغني بن عبد الواحد بن علي بن سرور المقدسي، أوحد زمانه في علم الحديث والحفظ، سمع الحديث بدمشق وبغداد وأصبهان والموصل وغيرها، فدخل مصر، وقال عنه ابن نجا الواعظ لما دخل مصر "قد جاء الإمام الحافظ، وهو يريد أن يقرأ الحديث فاشتهي ان تحضروا مجلسه ثلاث مرات، وبعدها أنتم تعرفونه وتحصل لكم الرغبة،... فقرأ أحاديث بأسانيدها حفظاً، وقرأ جزءاً، ففرح الناس به..."، وكان يجلس بمصر في غير موضع يقرأ الحديث. وصنف في الحديث تصانيف مهمة هي (الكمال في أسماء الرجال) و(تبيين الإصابة لأوهام حصلت في معرفة الصحابة) و(المصباح في عيون الأحاديث)، توفي في دمشق سنة (600هـ/1203م)[8].
- أبو محمد القاسم بن علي بن الحسن بن عساكر، سمع الحديث بدمشق وحدث فيها، ثم دخل مصر وحدّث وانتفع به أهلها، وروى عنه الكثير من علماء الشام ومصر، توفي سنة (600هـ/1203م)[9].
- أبو الحسن علي بن محمد بن جمال الإسلام ابن المسلم الدمشقي المعروف جده بابن بنت الشهرزوري، سمع الحديث بدمشق، ثم قدم مصر وحدث بها، وانتفع به الناس وحدث عنه علماء مصر، توفي سنة (602هـ/1205م)[10].

([1]) الصلابي: صلاح الدين الأيوبي، 261-262.
([2]) النوادر، 9-10 ؛ وينظر سبط بن الجوزي: مرآة الزمان، 427/8.
([3]) باشا: أدب الدول، 138.
([4]) الصفدي: الوافي، 158/1 ؛ الحنبلي: شفاء القلوب، 300.
([5]) المقريزي: السلوك، 258/1.
([6]) المنذري: التكملة، 409/1-410 ؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، 68/42.
([7]) الذهبي: تاريخ الإسلام، 374/42.
([8]) المنذري: التكملة، 19/3-22 ؛ أبو شامة: الذيل، 69-70 ؛ الذهبي: تذكرة الحفاظ، 1372/4، 1373، 1381؛ الصفدي: الوافي، 21/19 ؛ ابن كثير: البداية والنهاية، 38/13-39 ؛ السيوطي: طبقات الحفاظ، 486، حسن المحاضرة، 354/1 ؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، 185/6.
([9]) المنذري: التكملة، 6/3، 9 ؛ السبكي: طبقات الشافعية، 148/5 ؛ النعيمي: الدارس، 101/1، 103.
([10]) المنذري: التكملة، 126/3-127 ؛ الذهبي: سير،229/13-230؛ الأسنوي: طبقات، 429/2-430.

- أبو عمر محمد بن أحمد بن محمد بن قدامه بن مقدام الحنبلي المقدسي ثم الدمشقي، سمع الحديث من والده وعلماء الحديث في دمشق بعد انتقاله إليها، ثم قدم مصر وحدث فيها وقد روى عنه علماء ممن سمعوا منه، توفي سنة (607هـ/1210م)[1].
- أبو الحسن علي بن المفضل بن علي المقدسي، سمع الحديث من السلفي في الإسكندرية ثم دخل مصر، وحدث بها، حيث كان من حفّاظ الحديث وله تصانيف فيه توفي سنة (611هـ/1214م)[2].
- أبو عبد الله بن الحسن بن محمد العامري المقدسي المعروف بابن القطان، سمع الحديث بدمشق ومصر، وحدّث بمصر وتولى فيها ديوان الأحباس، توفي سنة (613هـ/1216م)[3].
- نجم الدين أبي عبد الله محمد بن عمر بن عبد الله بن سعد المقدسي الدمشقي، سمع الحديث ببغداد، وأصبهان، والموصل وغيرها، دخل مصر،وحدّث بها،توفي سنة (616هـ/1219م)[4].
- أبو عبد الله محمد بن عمر بن عبد الغالب بن نصر بن عبد الله الدمشقي، سمع الحديث في دمشق وبغداد، ثم انتقل إلى مصر فسمع بها وحدث، وقد روى عنه علماء مصر والشام، توفي سنة (618هـ/1221م)[5].
- أبو الفضل نعمة بن عبد العزيز بن هبة الله العسقلاني، سمع الحديث بدمشق من أبي القاسم بن عساكر، وحدث بمصر، وروى عنه علماء الشام ومصر، توفي سنة (625هـ/1227م)[6].
- أبو بكر محمد بن عبد الوهاب بن عبد الله بن علي الدمشقي، المعروف بابن الشيرجي، سمع الحديث بدمشق والإسكندرية، وحدث بمصر، ثم انتقل إلى دمشق فتوفي فيها سنة (627هـ/1229م)[7].
- أبو موسى عبد الله بن عبد الغني بن عبد الواحد بن سرور المقدسي، سمع الحديث بدمشق وبغداد وغيرها، وحدث بمصر، ثم رجع إلى دمشق فتوفي هناك سنة (629هـ/1231م)[8].
- أبو عبد الله محمد بن محمد بن إبراهيم بن الحسن الحموي، سمع الحديث بالشام، وحدّث بمصر، وكان من صوفية خانقاه سعيد السعداء، وروى عنه علماء الشام ومصر، توفي بعد سنة (630هـ/1232م)[9].
- أبو الفرج عبد الرحمن بن نجم بن عبد الوهاب بن عبد الواحد الدمشقي المعروف بابن الحنبلي، سمع الحديث في بغداد، وأصبهان، والموصل قدم مصر مرتين وحدّث بها فانتفع الناس به وبعلمه توفي في دمشق سنة (634هـ/1236م)[10].

([1]) ابن رجب: الذيل، 52/2، 61 ؛ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، 27/5، 30.
([2]) المنذري: التكملة، 15/4، 18؛الذهبي: تاريخ الإسلام، 44/80-81؛ السيوطي: حسن المحاضرة، 354/1.
([3]) المنذري: التكملة، 232/4.
([4]) الذهبي: تاريخ الإسلام، 44/319.
([5]) الذهبي: تاريخ الإسلام، 44/426-427.
([6]) الذهبي: تاريخ الإسلام، 45/240.
([7]) المنذري: التكملة، 411/5 ؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، 45/294.
([8]) المنذري: التكملة، 6/34-35.
([9]) الذهبي: تاريخ الإسلام، 46/463.
([10]) المنذري: التكملة، 6/192-193 ؛ الذهبي: سير، 14/92-93 ؛ ابن رجب: الذيل، 193/2، 200.

- أبو المفضل مكرم بن محمد بن حمزة الدمشقي المعروف بابن أبي الصقر سمع الحديث من جماعة من علماء عصره في الشام وكان يرحل لمصر كثيراً لغرض التجارة فيحدّث بها وانتفع به الناس توفي سنة(635هـ/1237م)[1].
- كمال الدين أحمد بن صدر الدين محمد بن عمر بن علي بن حموية الدمشقي، سمع الحديث من جماعة من علماء عصره، ثم انتقل إلى مصر وحدث بها وتولى فيها الوظائف المهمة توفي بغزة سنة (640هـ/1242م)[2].
- جمال الدين أبو القاسم عبد الرحمن بن مكي الطرابلسي، سمع من السلفي وغيره من علماء العصر حدّث بمصر وانتهى إليه علو الإسناد، توفي سنة (651هـ/1253م)[3].
- أبو الحسن علي بن يوسف بن أبي المعالي الصوري الدمشقي، سمع الحديث بنيسابور والشام، وكان يرحل للتجارة، دخل مصر وحدّث بها وانتفع به الناس، توفي سنة (654هـ/1256م)[4].
- زكي الدين أبو محمد عبد العظيم بن عبد القوي بن عبد الله بن سلامة ألمنذري الشامي الدمشقي، سمع الحديث بمكة ودمشق وحران والرها والإسكندرية، فكتب وصنف وخرج وأملى وحدث للكثير بمصر، واختصر صحيح مسلم وسنن أبي داؤود، وله كتاب "التكملة لوفيات النقلة" وهو أحد الحفاظ المشهورين، وروى عنه علماء مصر في علم الحديث، توفي سنة (656هـ/1258م)[5].
- شرف الدين أبو محمد عبد العزيز بن محمد بن عبد المحسن الدمشقي الحموي ابن الرفاء، سمع الحديث من علماء عصره بعد أن ارتحل به أبوه في كثير من البلدان، فحدّث بعد ذلك بعدة بلدان منها مصر، وحدّث مسند الإمام أحمد بالجزء، وانتفع به الناس بمصر وروى عنه علمائها، توفي سنة (662هـ/1263م)[6].
- رشيد الدين أبو الحسين يحيى بن علي بن عبد الله النابلسي، سمع الحديث من عمه وأباه وعدد من علماء العصر، فتقدم في علم الحديث فكان حافظاً متقناً للحديث، انتقل إلى مصر، وتولى فيها رياسة الحديث في دار الحديث الكاملية، وروى عنه علماء مصر، توفي سنة (662هـ/1263م)[7].
- النجيب عبد اللطيف بن عبد المنعم بن الصقل الحراني، سمع الحديث من علماء عصره تولى مشيخة دار الحديث الكاملية في مصر، توفي سنة (672هـ/1273م)[8].
- جمال الدين محمد بن علي بن محمد بن أحمد بن الصابوني، عني بالحديث وسمعه بالشام رحل إلى مصر وحدّث بها، روى عنه علماء مصر، ثم عاد الى الشام، توفي سنة (680هـ/1281م)[9].
- غازي الحلاوي أبو محمد بن عبد الوهاب الدمشقي، سمع الحديث عن علماء عصره، وقد انتهى إليه علو الإسناد بمصر حتى توفي فيها سنة (690هـ/1291م)[10].

([1]) المنذري: التكملة، 265/6-266 ؛ الذهبي: سير، 11/14.
([2]) الذهبي: تاريخ الإسلام، 427/46 ؛ الصفدي: الوافي، 49/8-50.
([3]) السيوطي: حسن المحاضرة، 379/1.
([4]) الذهبي: تاريخ الإسلام، 173/48.
([5]) الذهبي: تذكرة الحفاظ، 1436/4-1439 ؛ العيني: عقد الجمان في، 188/1-189 ؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، 63/7 ؛ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، 277/5-278.
([6]) الذهبي: تاريخ الإسلام، 101/49-102 ، سير، 27/15-28 ؛ الصفدي: الوافي، 334/18.
([7]) الذهبي: تذكرة الحفاظ، 1442/4-1443 ؛ السيوطي: حسن المحاضرة، 356/1، طبقات الحفاظ، 502.
([8]) السيوطي: حسن المحاضرة، 379/1.
([9]) النعيمي: الدارس، 110/1-111.
([10]) السيوطي: حسن المحاضرة، 384/1.

3. الفقه والمذاهب الفقهية:

يعرف الفقه على أنه العلم بالشيء والفهم له[1]، أما اصطلاحاً: فهو العلم بالأحكام الشرعية العملية المستنبطة من أدلتها التفصيلية[2]، وهو علم مستنبط بالرأي والاجتهاد ويحتاج العامل فيه إلى النظر والتأمل[3]. وبذلك يتناول جميع المسائل التي تهم الإنسان في حياته الشخصية والدينية والاجتماعية والاقتصادية[4].

والعامل في هذا المجال له مكانة خاصة عند الله وعند المسلمين، حيث يقول النبي (ﷺ): "من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين"[5]. ولعلم الفقه فروع منها، علم الفرائض، وعلم القضاء، وعلم الشروط والسجلات، وعلم الفتاوى، وعلم أصول الفقه[6]. ولأهمية الفقه فقد نال الفقهاء على اختلاف مذاهبهم احترام الناس والملوك والأمراء على مر العصور الإسلامية، ومنها العصر الأيوبي[7].

لقد عرفت مصر المذاهب الفقهية الأربعة، وأول المذاهب الفقهية التي دخلت مصر هو مذهب الإمام مالك بن أنس المتوفى سنة(179هـ/795م)[8]، ثم جاءها مذهب محمد بن إدريس الشافعي المتوفى سنة(204هـ/819م)[9]، ثم مذهب أبي حنيفة النعمان بن ثابت المتوفى سنة(150هـ/767م)[10]، أما مذهب احمد بن محمد بن حنبل المتوفى سنة(241هـ/855م)[11]، فقد دخل مصر وعرف بها في القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي وما بعدها[12]. ثم توقف العمل بهذه المذاهب بدخول الفاطميين لمصر، واستمر التوقف مدة حكمهم[13]، أما في بلاد الشام فقد توقف العمل بالمذاهب الأربعة عندما كانت تحت سلطة الفاطميين التي لم تستمر طويلاً[14].

لقد عرفت الشام في القرنين السادس والسابع الهجريين/ الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين، العمل بالمذاهب الفقهية الأربعة من خلال الاعتماد على المدارس التي خصصت لكل مذهب من هذه المذاهب[15]، ولما قامت دولة الأيوبيين في مصر، سار صلاح الدين على سياسة نور الدين في الشام في إعادة العمل بالمذاهب الفقهية في مصر[16]، فقرب هو والملوك الأيوبيين الفقهاء، وأحبوهم واتخذوا منهم سنداً في حروبهم مع الصليبيين، وشحذ همم الناس للجهاد[17]،

([1]) ابن منظور: لسان العرب، 3450/38.

([2]) ابن خلدون: المقدمة، 482 ؛ الجرجاني: التعريفات، 90.

([3]) الجرجاني: التعريفات، 90.

([4]) خاشع المعاضيدي: دراسات في تاريخ الحضارة العربية، مطبعة أوفسيت الحديثة، (بغداد، 1979) ؛ السامرائي: دراسات، 157.

([5]) محمد بن إسماعيل بن إبراهيم البخاري: صحيح البخاري، مطبوعات محمد علي صبيح وأولاده بميدان الأزهر، (مصر، د.ت)، 39/1.

([6]) ابن خلدون: المقدمة، 487، 489 ؛ خليفة: كشف، 579/1.

([7]) الزبيدي: الرحلات العلمية، 66.

([8]) محمد بن سعد بن منيع: الطبقات الكبرى، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، ط2، دار الكتب، (بيروت، 1997)، 465/5، 143/7 ؛ أبو شامة: الروضتين، 61/3 ؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان، 135/4-138.

([9]) السبكي: طبقات الشافعية، 100/1 ؛ الأسنوي: طبقات، 11/1-12.

([10]) ابن خلكان: وفيات الأعيان، 405/5، 414 ؛ شميساني: مدارس دمشق، 36.

([11]) ابن خلكان: وفيات الأعيان، 63/1-64.

([12]) المقريزي: الخطط، 363/3 وما بعدها.

([13]) ابن خلدون: المقدمة، 485 ؛ المقريزي: الخطط، 209/3.

([14]) بدوي: الحياة العقلية، 148.

([15]) محمد: المجتمع الإسلامي، 66.

([16]) أبو شامة: الروضتين، 120/2 ؛ الداوداري: كنز الدرر، 49/7 ؛ ابن خلدون: المقدمة، 485.

([17]) سلام: الأدب في العصر الأيوبي، 65.

كما عمل صلاح الدين على رفع إمكانيات الناس في مصر وإعدادهم إعداداً صالحاً عن طريق العلم، ولذلك انشأ المدارس التي تطلبت جلب علماء من الأقطار المجاورة ومنها الشام وتشجيعهم على الإقامة بمصر والتأليف والتدريس وتخريج جيل جديد من الفقهاء المصريين[1].

كما كان الملك الكامل محباً للعلماء ومجالستهم، "وكانت عنده مسائل غريبة في الفقه والنحو، يسأل الفقهاء عنها، فمن أجاب منهم حظي عنده وقرّبه"[2]. كما "كانت تنصب لهم تخوت إلى جانب تخته ينامون عليها ويسامرونه ويجارونه في العلوم والأدب"[3].

لقد أسهم فقهاء العصر الأيوبي في مجال التأليف، فقد كان لهم بعض الآثار لأن فكرة الإحاطة في التأليف موجودة إلى جانب التخصص[4]، مع ذلك فمن الإنصاف أن يقال عن فقهاء العصر الأيوبي بمصر والشام، أنهم كانوا يتطلعون إلى نوع من الاستقلال في الفقه[5].

أ. المذهب الشافعي:

أساس هذا المذهب هو الأخذ بالقرآن والسنة والإجماع، أما القياس فلم يتشدد فيه كتشدد مالك، ولم يتوسع فيه توسع أبي حنيفة[6]، وقد أعتنق نور الدين محمود المذهب الحنفي في الشام، واعتنق السلطان صلاح الدين وأولاده بمصر المذهب الشافعي[7]، ليتميزوا بمذهب غير مذهب السلاجقة والأتابكة، كما أن أساتذته كانوا شافعيين[8]، حتى وصف على أنه كان شافعي المذهب، أشعري العقيدة[9]، وبذلك أصبح المذهب الشافعي المذهب الرسمي للدولة الأيوبية بمصر[10].

أما أبرز فقهاء الشافعية الذين وفدوا إلى مصر من الشام وزاولوا نشاطهم العلمي فيها فهم:

- أبو القاسم علي بن أبي المكارم الدمشقي، تفقه في الشام ثم دخل مصر، فصار فيها أحد الأعيان الشافعية، توفي سنة (579هـ/1183م)[11].
- ضياء الدين أبو محمد عيسى بن محمد بن عيسى الهكاري، عمل في الفقه في الجزيرة وحلب، ثم انتقل إلى مصر مع قيام الدولة الأيوبية، وتذكر المصادر التاريخية أن الناس في مصر قد انتفعوا كثيراً من علمه، توفي سنة (585هـ/1189م)[12].
- أبو العباس أحمد بن المظفر بن الحسين الدمشقي، المعروف بابن زين التجار، كان من أعيان الشافعية بمصر، تولى تدريس الفقه الشافعي في المدرسة الناصرية الصلاحية المجاورة للجامع العتيق بمصر، توفي سنة (591هـ/1194م)[13].

([1]) سلام: الأدب في العصر الأيوبي، 165.
([2]) ابن واصل: مفرج الكروب، 185/5 ؛ الحنبلي: شفاء القلوب، 300.
([3]) ابن واصل: مفرج الكروب، 164/5.
([4]) باشا: أدب الدول المتتابعة، 145-146.
([5]) حمزة: الحركة الفكرية، 202.
([6]) سيد الأهل: أيام صلاح الدين، 122.
([7]) حمزة: الحركة الفكرية، 199.
([8]) سيد الأهل: أيام صلاح الدين، 121-122.
([9]) الصفدي: الوافي، 48/29 ؛ المقريزي: الخطط، 390/3، 425 ؛ حمزة: الحركة الفكرية، 94-95.
([10]) ابن واصل: مفرج الكروب، 198/1 ؛ المقريزي: الخطط، 209/3، 389.
([11]) السبكي: طبقات الشافعية، 284/4-285 ؛ السيوطي: حسن المحاضرة، 406/1.
([12]) الأصفهاني: الفتح القسي، 174 ؛ أبو شامة: الروضتين، 65/4 ؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان، 497/3؛ الصفدي: الوافي، 170/23-171 ؛ ابن كثير: البداية والنهاية، 334/12.
([13]) المنذري: التكملة، 434/7-435 ؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، 57/42؛ السبكي: طبقات الشافعية، 55/4؛ الآسنوي: طبقات، 312/1 ؛ السيوطي: حسن المحاضرة، 406/1.

- تاج الدين أبو عبد الله محمد بن هبة الله بن مكي الحموي، اعتنى بالمذهب الشافعي وتولى تدريسه في المدرسة الناصرية المجاورة للجامع العتيق بمصر، وكان أهل مصر يرجعون إليه في فتاويهم، توفي سنة (599هـ/1202م)[1].
- شهاب الدين محمد بن إبراهيم المعروف بابن الجاموس، تفقه بحماه في الشام، ثم انتقل إلى مصر، فكان من كبار الشافعية فيها، تولى تدريس الفقه الشافعي في المشهد الحسيني، توفي سنة (615هـ/1218م)[2].
- صدر الدين أبو الحسن محمد بن عمر بن علي بن حمويه شيخ الشيوخ الدمشقي، فوضه نور الدين محمود أمر الربط والزوايا والأوقاف بالشام، انتقل من الشام إلى مصر فتولى التدريس في المدرسة الشافعية، بعد وفاة نجم الدين الخبوشاني، كما كانت داره مجمعاً للفضلاء من الشافعية، وقد استمر عمل تدريس المذهب الشافعي في المدرسة الشافعية من اختصاص أبنائه من بعده، توفي سنة (617هـ/1220م)[3].
- زين الدين أبو الحسن علي بن يوسف بن عبد الله الدمشقي، تفقه ببغداد على يد والده، ثم سافر إلى الشام، ثم مصر، روى مسند الشافعي، وتولى قضاء مصر على المذهب الشافعي، توفي في القاهرة سنة (622هـ/225م)[4].
- أبو الحسن علي بن محمد بن سالم ألتغلبي، الملقب سيف الدين الآمدي، كان في أول الأمر على المذهب الحنبلي، ثم انتقل الى المذهب الشافعي، انتقل الى الشام ودرس فيها عدة فنون بالإضافة للفقه، ثم انتقل لمصر وتولى الإعادة[5] بالمدرسة المجاورة لضريح الامام الشافعي، وانتفع الناس بعلمه، توفي بدمشق سنة (631هـ/1233م)[6].
- أبو الحسن علي بن نصر الله بن علي الدمشقي، المعروف بابن الماسح، تفقه على مذهب الشافعي ثم قدم مصر، فتولى تدريس الفقه بالجامع الظافري بالقاهرة، حتى توفي سنة (635هـ/1237م)[7].
- عماد الدين أبو الفتح عمر بن صدر الدين محمد بن حمويه شيخ الشيوخ الدمشقي، تفقه على يد فقهاء من بغداد والشام، تولى تدريس الفقه الشافعي بعد والده في المدرسة الشافعية، قتل
في دمشق سنة (636هـ/1238م)[8].
- كمال الدين أحمد بن صدر الدين محمد بن حمويه شيخ الشيوخ الدمشقي، تولى تدريس الشافعية في المدرسة الشافعية بمصر، توفي سنة (640هـ/1242م)[9].
- عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام الدمشقي، برع في الفقه والأصول واللغة في الشام، وتولى تدريس الشافعية فيها، ثم قدم مصر في عصر السلطان الصالح نجم الدين أيوب، سنة 639هـ/1241م، وعندما وصل مصر تنحى له العلماء عن أماكنهم، وتأدب

([1]) الذهبي: تاريخ الإسلام، 415/42 ؛ السبكي: طبقات الشافعية، 195/4-196.
([2]) المنذري: التكملة، 319/4 ؛ السبكي: طبقات الشافعية، 19/5؛السيوطي:حسن المحاضرة، 406/1.
([3]) أبو شامة: الذيل، 189-190 ؛ سبط بن الجوزي: مرآة الزمان، 272/8؛ الصفدي: الوافي، 182/4.
([4]) الذهبي: تاريخ الإسلام، 122/45-123 ؛ السيوطي: حسن المحاضرة، 406/1.
([5]) ومهمته إعادة ما ألقاه المدرس على الطلبة ليفهموه، كما يشرح لهم ما صعب عليهم فهمه، ويعتبر المعيد المدرس الثاني للطالب، وقد يكون المعيد معيد في مدرسة، ومدرساً في أخرى. القلقشندي: صبح الأعشى،464/5 ؛ السبكي: معيد النعم، 108 ؛ أمينة البيطار: "التعليم في دمشق في القرن السادس الهجري"، مجلة آداب الرافدين، العدد (11)، كلية الآداب، جامعة الموصل، (1979)، 53-54.
([6]) ابن خلكان: وفيات الأعيان، 293/3-294 ؛ ابن الوردي: تاريخ ابن الوردي، 230/2.
([7]) المنذري: التكملة، 255/6 ؛ أبو شامة: الذيل، 254 ؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، 251/46.
([8]) المنذري: التكملة، 300/6-301 ؛ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، 181/5.
([9]) ابن واصل: مفرج الكروب، 169/5-170 ؛ الصفدي: الوافي، 49/8-50 ؛ المقريزي: الخطط، 439/2.

الشيخ زكي الدين عبد العظيم ألمنذري وامتنع عن الإفتاء من أجله وتقديراً لعلمه وولاه السلطان القضاء و تدريس المذهب في المدرسة المعروفة بين القصرين[1]، وانتفع الناس بعمله، توفي في مصر سنة (660هـ/1261م)[2].

- موفق الدين أبو البيان نبا بن سعد الله بن راهب بن مروان بن عبد الله الحموي، كان فقيهاً صالحاً، انتقل إلى مصر، وتولى الإعادة بمصر بالمدرسة الشافعية مدة، توفي سنة (665هـ/1266م)[3].
- محيي الدين أبو عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن عبد الله الشافعي الحلبي، الذي تولى تدريس الشافعية بالقاهرة بالمدرسة المسرورية، إلى أن توفى سنة (672هـ/1273م)[4].

ب. المذهب الحنفي:

يقوم هذا المذهب على الأخذ بالقرآن والسنة مع التشديد في أخذ الحديث وهو ما جعله يتوسع في القياس والاجتهاد وأعمال العقل مما أثار حفيظة المحدثين والفقهاء[5]، وقد ساد هذا المذهب في بلاد الشام فاعتنقه نور الدين محمود فأصبح المذهب الرسمي للزنكيين[6]، فعمل على نشره بمصر، ومن وقتها بدأت الحنفية تكثر بمصر، فأكمل السلطان صلاح الدين المهمة بإنشاء المدرسة السيوفية بالقاهرة لتدريس المذهب الحنفي[7] مع الاستعانة بعدد من فقهاء المذهب من بلاد الشام ومن أبرزهم:

- بدر الدين أبو محمد عبد الوهاب بن يوسف بن علي، تفقه في الشام على المذهب الحنفي ثم انتقل إلى مصر وتولى تدريس الحنفية بمدرسة السيوفيين بالقاهرة، توفي سنة (599هـ/1202م)[8].
- علم الدين أبو الربيع سليمان بن أبي بكر بن أميرك الحموي، انتقل إلى مصر وتولى تدريس المذهب الحنفي بمدرسة الأمير يازكوج ألأسدي المتوفى سنة(599هـ/1202م)، ومدرسة حارة الديلم في القاهرة، توفي سنة (638هـ/1240م)[9].
- صدر الدين سليمان بن أبي العز بن وهيب المفتي الكبير ألأذرعي الدمشقي تفقه بالشام وتبحر بالفقه وغوامضه، درّس الفقه بدمشق مدة، ثم انتقل إلى مصر فدرس الفقه الحنفي بالمدرسة الصالحية وتولى رئاسة الحنفية بمصر والشام، عاد إلى دمشق وتوفي فيها سنة (677هـ/1278م)[10].

جـ. المذهب الحنبلي:

([1]) بين القصرين: ويقصد بالقصرين قصر عبد الله بن عمرو بن العاص، وقصر عمر بن مروان بن الحكم. صارم الدين إبراهيم بن محمد الشهير بابن دقماق: الانتصار لواسطة عقد الأمصار، المكتب التجاري للطباعة والنشر، (بيروت، 1893)، 5/6-7.

([2]) أبو شامة: الروضتين، 12/1 ؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، 45/46 ؛ الكتبي: فوات الوفيات، 350/2-351؛ السبكي: طبقات الشافعية، 80/5-83 ؛ ابن كثير: البداية والنهاية، 236/13 ؛ العسقلاني: رفع الإصر، 350/2، 353 ؛ النعيمي: الدارس، 413/1، 419.

([3]) الذهبي: تاريخ الإسلام، 208/49-209.

([4]) الصفدي: الوافي، 194/3.

([5]) عاشور وآخرون: دراسات، 46 ؛ شميساني: مدارس دمشق، 36 ؛ خلف: الحياة العلمية، 54.

([6]) المقريزي: الخطط، 389/3-390 ؛ الزبيدي: الرحلات العلمية، 66.

([7]) المقريزي: الخطط، 389/3-390 ؛ الخربوطلي: مصر العربية الإسلامية، 351-352.

([8]) الذهبي: تاريخ الإسلام، 394/42.

([9]) أبو شامة: الذيل ،52؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، 366/46-367 ؛ الصفدي: الوافي، 219/15-220.

([10]) اليونيني: ذيل، 302/3 ؛ الذهبي: العبر، 335/3 ؛ النعيمي: الدارس، 475/1.

يعتمد هذا المذهب في أحكامه على القرآن الكريم والحديث الصحيح وفتوى الصحابة والقياس ولكن عند الضرورة القصوى[1]، لقد لقي هذا المذهب رواجاً محدوداً في بلاد الشام بالمقارنة مع المذاهب الأخرى[2]، وأنسحب الأمر على مصر بحكم تأثرها بالشام في هذه الفترة، الفترة، حيث يذكر السيوطي قائلاً: "ولم أسمع بخبرهم في مصر إلا في القرن السابع وما بعده... وأول إمام في الحنابلة علمت حلوله بمصر الحافظ عبد الغني المقدسي"[3].الذي دخل مصر في أواخر أيام الدولة الأيوبية ومن أبرزهم:

- تقي الدين أبو محمد عبد الغني بن عبد الواحد بن سرور المقدسي، تفقه ببغداد والشام، ثم انتقل إلى مصر بعد أن أباح الفقهاء دمه، فأقام بها فكان له دور في نشر المذهب الحنبلي بمصر، وظل في مصر حتى توفي سنة (600هـ/1203م)[4].
- أبو عمر محمد بن أحمد بن محمد بن قدامه بن مقدام المقدسي الدمشقي، تفقه بالشام ثم انتقل إلى مصر فقراء الحديث والنحو بالإضافة إلى معرفته بالفقه على المذهب الحنبلي فانتفع الناس بعلمه، وقضى حوائجهم، توفي سنة (607هـ/1210م)[5].
- ناصح الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن نجم بن عبد الوهاب بن عبد الواحد، المعروف بابن الحنبلي، تفقه على المذهب الحنبلي بعد رحلة في عدة بلدان، وكان قد تولى رياسة الحنابلة في دمشق، انتقل إلى مصر مرتين وقد وعظ بها و دروس المذهب الحنبلي، توفي سنة (634هـ/1236م)[6].
- أبو الحرم مكي بن عمر بن نعمة بن يوسف بن سيف بن عسكر المقدسي، تفقه على المذهب الحنبلي، واشتهر بمعرفته وأم بالمسجد المعروف به بدرب البقالين بمصر، وانتفع به الناس من علماء وعامة، توفي سنة (634هـ/1236م)[7].
- شمس الدين أبو بكر محمد بن إبراهيم بن عبد الواحد بن سرور المقدسي، تفقه على المذهب الحنبلي ببغداد والشام، ثم انتقل إلى مصر، فصار شيخ المذهب علماً وصلاحاً وتولى رياسة الحنابلة بمصر ودرس المذهب بمدرسة الصالحية وولي مشيخة خانقاه سعيد السعداء، وانتفع به الناس كثيراً، توفي بمصر سنة (676هـ/1277م)[8].

د. المذهب المالكي:

يقوم هذا المذهب في أحكامه على القرآن الكريم والحديث الصحيح ثم عمل أهل المدينة إذا اتفقوا على عمل معين، لأنه حجة عند مالك تجعله يقوم على القياس[9]، وسبب قلة حاجاتهم إلى الرأي هو لسهولة الحياة في المدينة بالمقارنة مع العراق[10]، و أن أكثر الوافدين إلى مصرا من أتباع هذا المذهب هم من بلاد المغرب[11]، وقلة عدد الشاميين الذين عملوا به في مصر. وقد

([1]) عاشور وآخرون: دراسات، 48 ؛ خلف: الحياة العلمية، 57.
([2]) الزبيدي: الرحلات العلمية، 77.
([3]) حسن المحاضرة، 480/1.
([4]) أبو شامة: الذيل، 69-70 ؛الذهبي: تذكرة الحفاظ، 1372/4 - 1374 ؛ ابن رجب: الذيل، 19/2 ؛ ابن كثير: البداية والنهاية، 33/13-34.
([5]) ابن رجب: الذيل، 52/2-61 ؛ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، 27/5-30.
([6]) المنذري: التكملة، 192/6-193 ؛ الذهبي: سير، 92/14-93 ؛ ابن رجب: الذيل، 193/2-200.
([7]) المنذري: التكملة، 221/6-222 ؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، 222/46.
([8]) المقريزي: الخطط، 367/2 ؛ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، 353/5-354.
([9]) عاشور وآخرون: دراسات، 47 ؛ خلف: الحياة العلمية، 60.
([10]) شميساني: مدارس دمشق، 37.
([11]) خلف: الحياة االعلمية، 60.

أقيمت لهم مدرسة لتعليم الفقه المالكي في مصر[1]. ومن أبرز فقهاء المالكية الشاميين الذين عملوا بمصر:

- شرف الدين أبو الحسن علي بن الأنجب المفضل بن علي بن مفرج المقدسي، تفقه على المذهب المالكي، وناب في الحكم بالإسكندرية و درس فيها في المدرسة التي عرفت باسمه، ثم انتقل إلى القاهرة ودرس المذهب في المدرسة الصاحبية إلى أن توفى سنة (611هـ/1214م)[2].
- أبو الحسين أحمد بن شرف الدين علي بن الأنجب المقدسي، تفقه على المذهب المالكي، ونشأ على غاية من الورع والتقوى، تولى تدريس المذهب المالكي في المدرسة الصاحبية بالقاهرة بعد والده، توفى سنة (613هـ/1216م)[3].
- أبو الطاهر محمد بن شرف الدين علي بن الأنجب المقدسي تفقه على المذهب المالكي، وتولى تدريس المالكية بالمدرسة الصاحبية بالقاهرة بعد والده وأخيه، توفى سنة(631هـ/1233م)[4].

4. علم التصوف:

التصوف لغةٌ مشتق من الفعل "تصوف" أي لبس الصوف، على وزن تقمص إذا لبس القميص[5]، أما اصطلاحاً فهو منهج مذهبي نهجته الحياة الروحية الإسلامية منذ بواكير نشأتها في صدر الإسلام[6]. فهو من العلوم الشرعية المحدثة في الإسلام[7]، ويعني العكوف على العبادة والزهد في متاع الدنيا، وليس بمعنى الرهبنة والانقطاع عن الدنيا[8]. أما الجرجاني فيعرفه على أنه الصبر تحت الأمر والنهي[9].

شكلت ظروف الشام حافزاً للمجتمع الشامي للتوجه إلى طريق التصوف والعزوف عن مباهج الدنيا ونعيمها والتقرب الى الله تعالى[10]. بحيث استطاع نور الدين في الشام الاستفادة من المتصوفة هؤلاء في التحشيد لتحقيق الوحدة الإسلامية، والتصدي للحملات الصليبية[11]. ثم قام السلاطين الأيوبيين بجذب تيار التصوف إلى مصر[12] وكان من نتائج هذا الانتقال، أن أفرزت أقطاباً وطرقاً للتصوف بين المصريين على اختلاف أوضاعهم الاجتماعية[13]. وأصبح التصوف مظهراً جماعياً بعد ان كان اتجاهاً فردياً محدوداً، من خلال بناء أماكن خاصة يتجمعون بها[14].

([1]) قراعه: مساجد ودول، 16.

([2]) المنذري: التكملة، 15/4-18 ؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان، 290/3-292 ؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، 80/44-81 ؛ السيوطي: طبقات الحفاظ، 489-490 ؛ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، 47/5-48.

([3]) المنذري: التكملة، 211/4 ؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، 136/44.

([4]) المنذري: التكملة، 104/6.

([5]) المقريزي: الخطط، 567/3.

([6]) عاصم محمد رزق:خانقاوات الصوفية في مصر في العصرين الأيوبي و المملوكي، ط1، مكتبة مدبولي ، (القاهرة ،1997)،39/1.

([7]) ابن خلدون: المقدمة، 505.

([8]) ماجد: تاريخ الحضارة، 182.

([9]) التعريفات: 38.

([10]) م. غود فروا: النظم الإسلامية، ترجمة: فيصل السامر وصالح الشماع، ط2، دار النشر للملايين، (بيروت، 1961)، 31 ؛ بهجت: أثر الحضارة السلجوقية، 121/1.

([11]) ضيف: تاريخ الأدب العربي، 64 ؛ الصلابي: صلاح الدين الأيوبي، 355.

([12]) المقريزي: الخطط، 570/3 ؛ بهجت: أثر الحضارة السلجوقية، 122/1.

([13]) بهجت: أثر الحضارة السلجوقية، 123/1.

([14]) المقريزي: الخطط، 570/3-571 ؛ عاشور: الأيوبيون والمماليك، 138.

وقد أقبلت على مصر في بداية العصر الأيوبي الطريقة القادرية للشيخ عبد القادر الكيلاني البغدادي المتوفى سنة(561هـ/1165م)، والطريقة الرفاعية لمواطنه ومعاصره الشيخ أحمد الرفاعي المتوفى سنة(578هـ/1182م)، وأخذت هاتين الطريقتين تشيعان بين المتصوفة المصريين[1].

وتعهد صلاح الدين أن ينفق على سائر من يلجأ إلى المساجد بالقرافة والقاهرة من الغرباء والصلحاء والصوفية وجعل جامع أحمد بن طولون مأوى للغرباء من المغاربة، وترك غرباء الشام يكسبون معاشهم بممارسة ما يلائمهم من الخدمة[2]. وساهم بقية السلاطين بتهيئة أماكن خاصة للزهاد والصوفية من زوايا وربط لاسيما دار سعيد السعداء التي حولها السلطان صلاح الدين سنة 569هـ/1173م، لتكون خانقاه لتجمع الطرق الصوفية القادمة إلى مصر، وجعل لها وقفاً، كما وضع أول نظام رئاسي للطرق الصوفية عندما منح شيخ خانقاه سعيد السعداء لقب "شيخ الشيوخ"[3]، على غرار ما كان في الشام، عندما فوض العادل نور الدين محمود، شيخ الشيوخ صدر الدين بن حموية أمر الربط والزوايا والأوقاف[4]، وقد انتقل صدر الدين فيما بعد إلى مصر وتولى فيها مشيخة الشيوخ بخانقاه سعيد السعداء، وتولى المنصب أبنائه من بعده،لتكون هذه الوظيفة حكراً على أفراد أسرة بن حموية،وظلت هذه الوظيفة تسند إلى العلماء الصوفية الوافدين من خارج مصر [5].

كما كانت الإسكندرية قد بلغت قمة ازدهارها الثقافي في العصر الأيوبي، وفيها ازدهرت حركة التصوف، وكانت قبلة علماء المسلمين من المشرق والمغرب[6].

لقد ارتحل إلى مصر عدد كبير من المتصوفة من بلاد المشرق والمغرب، أما أبرز من انتقل إلى مصر من الشام من المتصوفة في العصر الأيوبي، فيأتي في مقدمتهم صدر الدين بن حموية شيخ الشيوخ وأولاده وقد ذكرنا ترجمتهم في الفقه الشافعي وتوليهم مشيخة شيوخ خانقاه سعيد السعداء الصوفية بمصر. ومن المتصوفة الآخرين:

- أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله النابلسي الصوفي، درس التصوف في دمشق على يد مفتي العراقيين عبد القاهر بن عبد الله السهروردي، عندما رحل للشام للوعظ فيها، انتقل بعدها النابلسي إلى مصر، فعرف هناك بزهده، وأمّ بالناس بمدرسة منازل العز، توفي سنة (600هـ/1203م)[7].
- أبو عبد الله محمد بن محمد بن إبراهيم بن الحسن الحموي، كان من صوفية الخانقاه السعيدية بمصر، توفى بعد سنة (630هـ/1232م)[8].
- ناظم الدين عمر بن علي بن مرشد بن الفارض الحموي، انتقل أبوه من حماه إلى مصر فولد هناك فلما شب وترعرع اشتغل بفقه الشافعية، ثم حبب إليه الخلاء وسلوك طريق الصوفية، لكنه لم يكن من متصوفة خانقاه سعيد السعداء، بل كان متصوف ذو نزعة فردية، فكان يسيح لوحده في الجبل ويأوي إلى أوديته والى بعض المساجد المهجورة

([1]) ضيف: تاريخ الأدب العربي، 64.
([2]) بهجت: أثر الحضارة السلجوقية، 59/1.
([3]) المقريزي: الخطط، 570/3 ؛ السيوطي: حسن المحاضرة، 260/2 ؛ ماجد: تاريخ الحضارة، 185.
([4]) سبط بن الجوزي: مرآة الزمان، 272/8.
([5]) المقريزي: الخطط، 571/3 ؛ السيوطي: حسن المحاضرة، 260/2-261.
([6]) سحر عبد العزيز سالم: العراقيون في مصر في القرن السابع الهجري، مؤسسة شباب الجامعة، (الإسكندرية، 1991)، 52.
([7]) المنذري: التكملة، 37/3-38.
([8]) الذهبي: تاريخ الإسلام، 463/46.

في القرافة ثم يعود، واستمر ابن الفارض في نهجه التصوفي في هذا إلى أن توفي سنة (632هـ/1234م)[1].

- شمس الدين أبو يعقوب يوسف بن محمود بن الحسين بن أحمد الساوي الدمشقي، المعروف بابن المخلص، سمع من السلفي ومن غيره من علماء عصره، وكان من صوفية خانقاه سعيد السعداء، توفي سنة (647هـ/1249م)[2].
- عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام الدمشقي، رحل إلى مصر فتولى القضاء وتدريس الصالحية فيها، وقد أخذ التصوف عن الشهاب السهرودي وكان يقرأ عليه (الرسالة القشيرية) وصنف في التصوف مؤلفات منها: (حل الرموز ومفاتيح الكنوز) و(أحاديث الصوفية)، كما كان الطلبة يقرؤون عليه (بيان أحوال الناس يوم القيامة) توفي بالقاهرة سنة (660هـ/1261م)[3].

ثانياً: علوم اللغة العربية وآدابها

كانت مصر والشام قبلة العالم الإسلامي في العصر الأيوبي، بسبب الوحدة السياسية الشاملة والتي تصدت للخطر الصليبي، وقضائها على خطر العزلة الجاثم عليها منذ عقود. لذلك نرى معظم اللغويين والأدباء ينشأوون في بلد، ويتلقون علومهم في ثانٍ، ويدرسون في ثالث، وقليل منهم ارتضى لنفسه العزلة في بلده، بل نرى حركة التنقل طلباً للعلم أو وراء المجد والشهرة واسعة بسبب مساعدة السلاطين والأمراء الأيوبيين لهم[4]، وذلك لارتباط العلوم اللغوية اللغوية بالعلوم الشرعية من أجل استيعاب مضامينها والعمل بمقتضى أحكامها، فتناول علماء هذا العصر علوم اللغة العربية والتأليف فيها من لغة وصرف وبلاغة وعروض[5].

وقد اتصف الأدب في العصر الأيوبي بصفات تميزه عن غيره من العصور إذ تأثر الأدب في مصر والشام بالحروف الصليبية، التي اندلعت نارها في ذلك العصر[6].

1. علوم اللغة العربية:

اللغة هي "... أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم..."[7]، وهو بيان الموضوعات اللغوية[8]. وهو كلام يعبر به كل قوم عن حاجاتهم، فهي وسيلة للتخاطب من أجل فهم الحياة[9]. الحياة[9].

أما النحو في اللغة يعني القصد والطريق[10]، أما اصطلاحاً: فهو علم بقوانين يعرف بها أحوال التراكيب العربية من الأعراب والبناء وغيرهما ويعرف بها صحة الكلام وفساده[1].

([1]) ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، 149/5-153.
([2]) الذهبي: سير، 234/14.
([3]) اليونيني: الذيل، 172/2-174 ؛ الداودي: طبقات، 309/1 ؛ بدوي: الحياة العقلية، 162-164.
([4]) باشا: أدب الدول المتتابعة، 8.
([5]) مجير الدين الحنبلي العليمي: الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، المطبعة الحيدرية، (النجف، 1968)، 217/2 ؛ خليفة: كشف، 55/1 ؛ باشا: أدب الدول المتتابعة، 149 ؛ خلف: الحياة العلمية، 62.
([6]) فرغلي: الحركة التاريخية، 79.
([7]) أبو الفتح عثمان بن جني:الخصائص، تحقيق: محمد علي النجار، دار الكتاب العربي،(بيروت، 1952)، 33/1.
([8]) ابن خلدون: المقدمة، 585.
([9]) إسماعيل بن حماد الجوهري: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، ط2، دار العلم، (بيروت، 1979)، 2484/6 ؛ ابن منظور: لسان العرب، 4049/45.
([10]) ابن منظور: لسان العرب، 4371/48.

"فيعرف من خلالها الفاعل من المفعول والمبتدأ من الخبر ولولاه لجهل أصل الإفادة"[2]. فالنحو بذلك يعد قانون اللغة وميزان تقويمها[3].

والبلاغة هي الوصول إلى الشيء الذي يريده[4]. أما اصطلاحاً: فهي مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته[5]. ويتضمن علم البلاغة ثلاثة فروع هي البيان ومعناه "... إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة..."[6] وعلم المعاني وهو "... تتبع خواص تراكيب الكلام ليحترز بالوقوف عليها عن الخطأ..." [7] أما علم البديع فيعني: "تحسين الكلام معنى ولفظاً..."[8].

أما أبرز من ارتحل إلى مصر من الشام وساهم في الأنشطة اللغوية والأدبية هنالك فهم:

- أبو محمد عبد الله بن أبي الوحش بن بري بن عبد الجبار المقدسي الشافعي اللغوي، سمع النحو واللغة من علماء العصر في مصر حتى نال حظاً منها، حتى تصدر بجامع مصر العتيق لإقراء العربية، وتخرج على يده عدد كبير من علماء اللغة بمصر، وقصده الطلبة من كل مكان، وكان لشدة معرفته باللغة أن تولى التصفح في ديوان الإنشاء، فلا يصدر كتاب إلى ملوك النواحي إلا بعد أن يتصفحه، ومن مصنفاته في اللغة: (الاختيار في اختلاف أئمة الأمصار) و(الإيضاح في حاشية الصحاح للجوهري) وغيرها، توفى ابن بري سنة (582هـ/1186م)[9].
- القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني، شيخ البلاغة[10]، الذي جاء إلى مصر من فلسطين من أيام الدولة الفاطمية، إلا أنه وصل إلى درجة النضج اللغوي في عصر الدولة الأيوبية حيث تولى فيها ديوان الإنشاء، ورسائله تدل على تمكن تام من علوم العربية وعلى سلامة الأسلوب ومتانة في التعبير، فانتشر مذهبه الفني الكتابي انتشاراً كبيراً، وتحمس له الكثرة من أهل مصر، توفي سنة (596هـ/1199م)[11].
- أبو الفتح عثمان بن عيسى البلطي، تعلم النحو في بلاد الشام، انتقل إلى مصر في عهد السلطان صلاح الدين الذي رتب له في الجامع العتيق بمصر ليقرأ به النحو، لينتفع به الناس، ومن مصنفاته في اللغة والنحو (كتاب النير) و(العروض الكبير) و(العروض الصغير) و(العظات الموقظات)، توفي سنة (599هـ/1202م)[12].
- نجم الدين محمد بن أبي بكر بن علي المعروف بابن الخباز، اشتغل وبرع في علم العربية، خرج من حلب إلى مصر، فأقرأ العربية للناس فيها، وصنف كتباً مشهورة

([1]) يوسف بن عبد الله السكاكي: مفتاح العلوم، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، (مصر، 1937)، 137 ؛ الجرجاني: التعريفات، 125.

([2]) ابن خلدون: المقدمة، 583.

([3]) شوقي ضيف: المدارس النحوية، ط2، دار المعارف، (مصر، 1972)، 11-13.

([4]) ابن منظور: لسان العرب، 346/5.

([5]) محمد بن عبد الرحمن القزويني: الإيضاح في علوم البلاغة، راجعه وصححه: بهيج غزاوي، ط1، دار إحياء العلوم، (بيروت، 1988)، 9.

([6]) السكاكي: مفتاح، 156 ؛ ابن خلدون: المقدمة، 588.

([7]) السكاكي: مفتاح، 77.

([8]) السكاكي: مفتاح، 200 ؛ القزويني: الإيضاح، 16.

([9]) شهاب الدين ياقوت بن عبد الله الحموي: إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب المعروف بمعجم الأدباء وطبقات الأدباء، مراجعة: وزارة المعارف العمومية ،ط1، دار إحياء التراث العربي ،(بيروت ، د.ت)، 12/56-57 ؛ المنذري: التكملة، 1/73-76 ؛ أبو شامة: الروضتين، 172/3؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، 41/138-140، سير، 13/72-73 ؛ السبكي: طبقات الشافعية، 234/4 ؛ ابن كثير: البداية والنهاية، 12/319-320.

([10]) السيوطي: حسن المحاضرة، 564/1.

([11]) حمزة: الحركة الفكرية، 14، 28؛ حسن وآخرون: النظم الإسلامية، 160؛ حمادة: الوثائق السياسية،70/4.

([12]) الحموي: معجم الأدباء، 12/141-167 ؛ الكتبي: فوات الوفيات، 443/2.

منهـا، "شـرح ألفيـة ابـن معطـي"، ثـم عـاد إلـى حلـب، وتـوفي فيهـا سـنة (631هـ/1233م)[1].

- جمال الدين محمد بن محمد بن عمرون الحلبي، كان إماماً في علم النحو، سمع من علماء عصره في الشام، انتقل إلى مصر وأقرأ بها النحو، ثم عاد إلى الشام، وتوفي سنة (649هـ/1251م)[2].
- عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام الدمشقي، برع في العربية بالإضافة الى براعته في الفقه، انتقل إلى مصر، ودرس فيها العربية إلى جانب الفقه، وانتفع به الناس، توفي سنة (660هـ/1261م)[3].
- علاء الدين علي بن أبي الحزم المعروف بابن النفيس الدمشقي، كان إمام وقته في فنه، أجاد عدة علوم من بينها العربية والبيان، انتقل إلى مصر وصنف فيها تصانيف مشهورة بمختلف العلوم منها العربية وانتشر على يده التلاميذ بمصر، توفي بمصر سنة (687هـ/1288م)[4].

2. **الأدب:**

أثرت الحروب الصليبية في الأدب العربي بمصر والشام تأثيراً كبيراً، حيث ألهبت هذه الحروب العواطف، وأوقدت نار الحقد على الصليبيين، فعبر الشعراء عن هذه العواطف أصدق تعبير[5]. ساعدهم في هذا أن نور الدين محمود وصلاح الدين كانا يقربان الشعراء ويجالسونهم لاستماع قصائدهم في تسجيل الانتصارات أو تخليد المآثر التي يقومان بها، وكانا لا يبخلان على الشعراء بالمال والعطاء الجزيل. وقد وصف صلاح الدين أنه كان صاحب ذوق لطيف في رواية الشعر وحفظه[6]. وقد فتحت مآثره وانتصاراته مجالاً واسعاً للحديث عنه وعن مآثره، فاشترك الشعراء المصريين إلى جانب إخوانهم الشعراء الشاميين في تمجيد هذه الانتصارات من خلال الشعر[7]. ومن أمراء الأسرة الأيوبية الذين اهتموا بالشعر عز الدين فرخشاه بن شاهنشاه بن أيوب المتوفى سنة(578هـ/1182م)[8]، ابن أخي السلطان صلاح الدين فعن شعره يذكر ابن العماد الأصفهاني أن "شعره ظَرفُ الظرفِ، وحُسنِي الحُسنِ، ومَلِحُ الملاحةِ، وجادَّةُ الإجادةِ، ومائدة الفائدةِ، ومأدبةُ الأدب، وعلمُ العلم، وحِكمةُ الحِكمة، ونُور الحِدقة، ونور الحديقة". وقد أنشد بيتين لصديق له بمصر:

عَرَتنـي هُمـومٌ أرقتَنـي لِعُظمِهـا كمـا يـأرق الصَّـبُّ الكئيـب مـن الوَجْـدِ

ولابُـدّ أن أدعـوا شـقيقاً يُزيلهـا فـإن تسـتجب يـابن الرشـيد فمِـن رُشـدي[9]

([1]) الأسنوي: طبقات، 499/1.

([2]) الذهبي: سير، 244/14-245 ؛ جلال الدين عبد الرحمن السيوطي: بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، والنحاة، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط1، مطبعة عيسى ألبابي الحلبي، (القاهرة، 1964)، 231/1.

([3]) الذهبي: سير، 15/16-18 ؛ الصفدي: الوافي، 318/18.

([4]) الأسنوي: طبقات، 506/2-507.

([5]) رشيد: النشاط العلمي، 452.

([6]) سلام: الأدب في العصر الأيوبي، 231-232 ؛ رشيد: التعليم في ظل الدولتين، 273.

([7]) حسين: دراسات في الشعر، 97-98.

([8]) سبط بن الجوزي: مرآة الزمان، 372/8 ؛ خير الدين الزركلي:الأعلام ، ط15، دار العلم للملايين،(بيروت، 2002)، 141/5.

([9]) خريدة القصر و جريدة العصر (شعراء الشام)، تحقيق:شكري فيصل ، المطبعة الهاشمية ،(دمشق، 1968)، 1968)، 113/6-116.

يضاف إلى هذه العوامل التي ساعدت على نهضة الأدب في مصر في العصر الأيوبي، عامل تنافس مدنها ومباراة بعضها بعضاً في إكرام الأدباء والعلماء الوافدين إليها[1].

واتخذ البعض الشعر طريقاً للحصول على الرزق، فكان السلطان أو الأمير يأوي إليه جماعة من هؤلاء سواء عن طريق الدولة بتعيينهم في وظائف متعلقة بديوان الرسائل أو الدواوين الأخرى أو عن طريق شخصي، كأن يكفل لهم الرزق عن طريق راتب معين[2].

وظهرت في العصر الأيوبي بمصر بعض الاصطلاحات الفنية عند الشعراء، فعرفت الموشحات الشعرية الصوفية، التي انتشرت في الشام أولاً بفعل انتشار التصوف فيها، ومنها انتقلت إلى مصر[3]. أما الزجل[4] فقد اتجه نحو التصوف، وشهد رواجاً وازدهاراً في بلاد الشام الشام ومصر في هذه الفترة، إذ أقبلت عليه الفئات الشعبية المختلفة، لاتصافه بالسهولة أولاً، وتحلله من قيود الأعراب واللغة ثانياً، ويعبر عن نفسياتها تعبيراً مباشراً باللغة العلمية التي ينظم فيها. وقد ظهر الزجل في الشام وبدأ من النقطة التي وقف عندها في المغرب والأندلس، بعد المصائب التي حاقت بالأندلس في القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي، ليظهر نوع جديد من الزجل يعرف بـ "البليق" الذي نشأ في الشام وانتقل منها إلى مصر، بدليل أن اسمه مشتق من اسم طائر جميل يدعى الأبلق، وهو معروف بكثرة في بلاد الشام بأبي بليق، ويجمع ريشه بين اللونين الأسود والأبيض[5].

وكانت الشام قبل قيام دولة الأيوبيين، أجزل شعراً، وأقرب إلى الديباجة العربية القديمة من مصر وبلاد الجزيرة العربية، في مجال البديع[6] من الشعر، حيث انتقل الأدب المصري بالبديع نقلة جديدة في العصر الأيوبي،على يد الوافدين من الشام من شعراء وكتاب وعلى رأسهم القاضي الفاضل[7].

وقد ظهر في مصر في هذه الفترة شعر أو فن الأخوانيات، وقد أكثر المصريين منه نتيجة العلاقة المتينة التي كانت تربط الشعراء المصريين مع بعضهم و حتى مع الوافدين إليها، ويجعلهم إخواناً في السراء والضراء [8].

أما صور الأدب النثري فكانت هي نفسها تقريباً الصور والفنون التي عرفها الأدب العربي من قبل، والمقصود بذلك الرسائل والخطب وأضيفت إليها المقامات فيما بعد[9]. أما الرسائل فقد ظهر فيها ما يعرف بـ (الأخوانيات) على غرار الشعر، وقد ذكرناها في ديوان الإنشاء في الميدان الإداري، وأبرز من مثلها الرسائل المتبادلة بين القاضي الفاضل والعماد الأصفهاني[10].

([1]) حمزة: الحركة الفكرية، 272.

([2]) سلام: الأدب في العصر الأيوبي، 49.

([3]) باشا: أدب الدول المتتابعة، 586 ؛حسين: دراسات في الشعر ،167.

([4]) الزجل: هو أرفع الشعر رتبة وأشرفها نسبة وأكثرها أوزاناً وأرجحها ميزاناً. والزجل في اللغة: الصوت. يقال: سحاب زجل: أذا كان فيه الرعد. وقد أطلق على كل ما أعرب: موشحاً، وكل ما خلا من الأعراب: زجلاً. صفي الدين الحلي: العاطل الحالي والمرخص الغالي، تحقيق: حسين نصار، ط2، دار الشؤون الثقافية العامة، (بغداد، 1990)، 5، 8.

([5]) باشا: أدب الدول المتتابعة،614,611-615.

([6]) البديع لغةً: المحدث العجيب، أما اصطلاحاً: اسم موضوع لفنون من الشعراء يذكرها الشعراء ونقاد المتأدبين منهم، والبديع يرادف كلمة البيان أو البلاغة. ابن منظور: لسان العرب، 230/3 ؛ أبو العباس عبد الله بن محمد بن المعتز العباسي: البديع في البديع، ط1، دار الجيل، (بيروت، 1990)، 7، 19.

([7]) حمزة: الحركة الفكرية، 268-279,269.

([8]) حسين: دراسات في الشعر، 167.

([9]) سلام: الأدب في العصر الأيوبي، 177.

([10]) القلقشندي: صبح الأعشى، 167/8.

أما الخطابة فقد حظيت بمكانة رفيعة لدى الأدباء في العصر الأيوبي، وقد شاع النثر الفني في مصر في هذه الفترة لغلبة العامل الديني على الناس فيها. وقد تنوعت أهداف الخطابة آنذاك، فمنها الخطب الدينية التي تهدف إلى تهيئة النفوس لفعل الخير وهدايتها لمنهج الحق، وعرف هذا النوع من الخطب بـ (الخطب الوعظية) لذلك اهتم الأيوبيين بالخطابة والخطباء وأغدقوا عليهم الأموال، وعمدوا إلى تقريبهم[1].

وأبرز من انتقل من الشام الى مصر فعمل بها في مجال الشعر والنثر في العصر الأيوبي:

- أبو علي الحسين بن عبد الله بن رواحة الحموي الفقيه الشافعي، انتقل إلى مصر، ومدح بها جماعة من الملوك، وقال فيها الشعر الجيد، وانتفع بشعره الناس بمصر، قتل قرب عكا سنة (585هـ/1189م)[2].
- القاضي الفاضل، الذي برع في مجال الشعر والنثر بفرعه الكتابي، حتى عُدَّ رئيس مدرسة تبعه فيها المصريون والشاميون[3]، أما في الشعر فهو فصيح الألفاظ سهل التركيب واضح المعاني، وله مدح جيد وفخر وغزل واخوانيات[4]. وله قصيدة يشتاق يشتاق فيها إلى مصر ونيلها لما غادر مع السلطان صلاح الدين في حملاته على الموصل:

بـــالله قُـــل للنيـــل عنـــي إننـــي ... لـــم أشـــفِ مـــن مـــاء الفـــرات غَلـــيلاً

وســـل الفـــؤاد فإنـــه لـــي شـــاهد ... أن كـــان طرفـــي بالبكـــاء بخـــيلا

يـــا قلـــب كـــم خلفـــت ثـــم بثينـــة ... وأظـــن صـــبرك أن يكـــون جمـــيلا[5]

وقد ضمت مدرسة القاضي الفاضل الشعرية، جماعة من شعراء مصر الأعلام تجمعهم رابطة واحدة وهم: هبة الله بن سناء الملك المتوفى سنة(608هـ/1211م)[6]، والأسعد بن مماتي، وجمال الدين بن مطروح المتوفى سنة(649هـ/1251م)[7]، وجمال الدين بن الجزار المتوفى سنة(679هـ/1280م)[8]، وابن الفارض[9]. وقد اقتدى هؤلاء بشعره وساروا على نهجه[10].

أما دور القاضي الفاضل في مجال النثر فكان عن طريق الرسائل الديوانية الرسمية وإخوانيات شخصية[11]، ويكفي شهادة السلطان صلاح الدين على مكانة كتابته وعظمتها وأسلوبه الرهيب فيها عندما قال: "لاتظنوا أني ملكت البلاد بسيوفكم بل بقلم القاضي الفاضل..."[12].

- بهاء الدين أبو الحسن علي بن محمد بن رستم الدمشقي، المعروف بابن الساعاتي، عرف بهذا اللقب نسبة لأبيه الذي عمل الساعات في دمشق أيام الملك العادل نور الدين محمود بن

([1]) البنداري: سنا البرق، 246 ؛ الباشا: الفنون الإسلامية، 1302/3.
([2]) المنذري: التكملة، 196/1-198.
([3]) ضيف: تاريخ الأدب العربي، 412.
([4]) عمر فروخ: تاريخ الأدب العربي، دار العلم للملايين، (بيروت، 1984)، 411/3.
([5]) ابن خلكان: وفيات الأعيان، 160/3 ؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، 247/42.
([6]) الحموي: معجم الأدباء، 265/19-271.
([7]) ابن خلكان: وفيات الأعيان، 258/6-260.
([8]) الكتبي: فوات الوفيات، 277/4-293 ؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، 345/7.
([9]) سلام: الأدب في عصر صلاح الدين، 362.
([10]) حسين: دراسات في الشعر، 214.
([11]) فروخ: تاريخ الأدب العربي، 411/3.
([12]) سبط بن الجوزي: مرآة الزمان، 472/8.

زنكي[1]، أجاد ابن الساعاتي الشعر في الشام، ثم انتقل إلى مصر سنة 585هـ/1189م، ليقضي بقية عمره هناك، حيث أقام بمدينة المحلة الكبرى، مع عائلته[2]. واتسم شعره بسلامة اللفظ ولطافة التعبير، وفنونه المدح والفخر والرثاء والهجاء والوصف والغزل والمجون، وأكثر شعره الغزل ووصف الطبيعة والقصور والرياض[3]. وله في هذا المجال قطعة يذكر فيها ليلة له في أسيوط:

لله يـــومٌ فـــي ســـيوط وليلـــةٌ ... صَـــرفُ الزمـــان بأختهـــا لا يغلـــط

بتنـــا وعُمُـــر الليـــل فـــي غُلوائـــهِ ... ولـــه بنـــور البـــدر فـــرعٌ أشـــمطُ

والـــطل فـــي ســـلك الغصـــون كـــالؤلؤ نـــظم يصـــافحه النســـيم فيســـقط

والطَّيـــر تقـــرأُ والغـــديرُ صـــحيفةٌ ... والـــريحُ تكتـــب والغمـــامُ يـــنقطُ[4]

ومهما يذكر عن غرور الشاعر، وهي صفة نجدها لدى أدباء هذا العصر، إلا أن شعره وحياته يمثلان مظهران من مظاهر الوحدة الأدبية في عصر الأيوبيين بين الشام ومصر[5]، توفي ابن الساعاتي بالقاهرة سنة (604هـ/1207م)[6].

- شرف الدين أبو المحاسن محمد بن نصر بن الحسين المعروف بابن عنين الدمشقي، تتلمذ على يد شعراء ونحوي العصر في الشام، ورحل الى بغداد وسمع مقامات الحريري[7]، وابتدأ يقول الشعر سنة 565هـ/1169م وهو ابن ستة عشر سنة وكان شاعراً محسناً، رقيق الشعر بديع الهجو، ولم يكن في عصره آخر مثله بالشام، ويذكر عنه انه: "كان خاتمة الشعراء، لم يأت بعده مثله، ولاكان في أواخر عصره من يقاس به..."، وكان ابن عنين مولعاً بثلب أعراض الناس، وله قصيدة سماها "مقراض الأعراض".انتقل الى مصر سنة 594هـ/1197م وأقام بها مدة طويلة، وطالت فيها عشرته لشعراء مصر وأدبائها، فأعجبوا به وبخفة روحه ودعابته [8]، وقد تركت زيارته هذه لمصر أثراً في نفسه، فلم يتشوف إلى بلد بعد عودته لدمشق، قدر تشوقه إلى مصر وقال بها:

تحيـــة مشـــتاقٍ بعيـــد مـــزارهُ ... أبـــى شـــوقه أن يســـتقر قـــرارهُ

إذا نَفْحَـــةٌ مـــرت بـــه قاهريـــةٌ ... ذكـت فـي الحشـا بـين الجـوانح نـارهُ

ومـا شـام مـن أعـلا المقطـم جفنـهُ ... سـنا بـارقٍ إلا توالـت قطـارهُ

* * * * *

([1]) أبو شامة: الروضتين، 26/3 ؛ ابن سعيد: الغصون اليانعة، 118/2 ؛ الصفدي: الوافي، 5/22.

([2]) سلام: الأدب في العصر الأيوبي، 304.

([3]) فروخ: تاريخ الأدب العربي، 440/3.

([4]) الصفدي: الوافي، 7/22 ؛ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، 13/5.

([5]) باشا: أدب الدول المتتابعة، 331.

([6]) أبو شامة: الروضتين، 26/3 ؛ الصفدي: الوافي، 5/22 ؛ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، 13/5.

([7]) مقامـات الحريـري: مـن كتـب البلاغـة الشـهيرة لأبـي محمد القاسـم بـن علـي الحريـري المتـوفى سـنة (516هـ/1165م)، ينظر كتاب مقامات الحريري، مطبعة المعارف، (بيروت، 1872).

(4) الحمـوي: معجـم الأدبـاء،19/81-83 ؛ سبط بـن الجـوزي:مـرآة الزمـان ، 8/696-697 ؛ابـن خلكـان: وفيـات الأعيان،5/14-16؛ الذهبي: تاريخ الإسلام ،45/411-412؛ الصفدي: الوافي،5/83؛ابن كثير:البدايـة والنهايـة ،13/137-138 ؛خليل مردم بك: الشعراء الشاميون ، تحقيق: عدنان مردم بـك، دار صـادر ،(بيروت ، د.ت)،245-248.

أحـنُّ إلـى مصـرٍ ويـا ليـت أن لـي إذا ذكـرت مصـر جناحـاً أعـارُهُ

فـآوى إلـى ظـلٍ ظليـل ونائـل جزيـل وملـك حـالف المـز جـاره[1]

وقد التقى ابن عنين في مصر بالشاعر ابن سنا الملك، فكانت لهم مجالس يجري بينهم فيها مفاكهات ومحاورات يروق سماعها عرفت بـ (الاخوانيات)، وكان يقال عنه بمصر، هذا شاعر الشام، توفي ابن عنين سنة (630هـ/1232م)[2].

- شرف الدين أبو القاسم عمر بن علي بن مرشد بن علي الحموي، المعروف بابن الفارض سيد شعراء العصر، له ديوان شعر لطيف وينحى في أسلوبه منحى طريقة الفقراء وهو من شعراء التصوف، وسمع المنذري من شعره، توفي بالقاهرة سنة (632هـ/1234م)[3].
- أبو الجنان رضوان بن عمر بن علي بن خميس الدمشقي، قدم مصر بعد سنة 600هـ/1203م، ومدح بها جماعة، وله شعر جيد، روى عنه ألمنذري، توفي سنة (634هـ/1236م)[4].
- عبد المحسن بن حمود الحلبي، كان شاعراً أديباً مترسلاً، رحل إلى مصر وعمل بخدمة الملك الكامل، واتصل بعلمائها، ثم عاد إلى دمشق، له ديوان شعر، توفي سنة (643هـ/1245م)[5].

أما في مجال النثر بفرعيه الخطابة والوعظ فقد برز كل من الفقيه زين الدين بن نجية (ت 599هـ/1202م) رأس الحنابلة في مصر الذي كان يعظ بجامع القرافة بمصر[6]، وأبو عبد الله المعروف بالتاج الحموي (ت 599هـ/1202م) الذي تولى الخطابة بجامع القاهرة[7]، والحافظ تقي تقي الدين المقدسي (ت 600هـ/1203م) الذي كان يعظ بجامع عمرو بن العاص[8]، وشهاب الدين أبو عبد الله بن الجاموس الحموي (ت 615هـ/1218م) الذي تولى خطابة الجامع العتيق [9]، وناصح الدين أبو الفرج بن الحنبلي (ت 634هـ/1236م) الذي وعظ بمصر في زيارته لها مرتين وحصل له بها قبول[10]، وشيخ الإسلام عز الدين بن عبد السلام (ت 660هـ/1261م) الذي كان يعظ بجامع عمرو بن العاص [11].

ثالثاً: العلوم العقلية

([1]) شرف الدين أبي المحاسن ابن عنين: ديوان ابن عنين، تحقيق: خليل مردم بك، مطبوعات المجمع العلمي العربي، (دمشق، 1946)، 91 ؛ سلام: الأدب في العصر الأيوبي، 298.

([2]) ابن خلكان: وفيات الأعيان، 18/5 ،62/6؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، 411/45 ؛ الصفدي: الوافي، 83/5؛ ابن كثير: البداية والنهاية، 137/13؛ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب ،35/5.

([3]) ابن خلكان: وفيات الأعيان، 454/3-455 ؛ الترمانيني: أحداث التاريخ الإسلامي، 835/3-837.

([4]) الذهبي: تاريخ الإسلام، 188/46.

([5]) الذهبي: سير، 222/14-223 ؛ الكتبي: فوات الوفيات، 393/2-394 ؛ شاكر مصطفى: التاريخ العربي والمؤرخون، ط1، دار العلم للملايين، (بيروت، 1979)، 298/2-299.

([6]) المنذري: التكملة، 417/2-418 ؛ أبو شامة: الذيل، 54-55 ؛ الذهبي: سير، 212/13-214؛ العبر، 126/3 ؛ ابن ابن رجب: الذيل، 436/1-440 ؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، 183/6.

([7]) المنذري: التكملة، 408/2-409.

([8]) الذهبي: تذكرة الحفاظ، 1372/4-1380 ؛ ابن رجب: الذيل، 11/3.

([9]) المنذري: التكملة، 319/4 ؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، 258/44-259 ؛ الصفدي: الوافي، 21/2.

([10]) المنذري: التكملة، 192/6-193 ؛ الذهبي: سير، 92/14-93 ؛ ابن رجب: الذيل، 193/2-200.

([11]) الذهبي: تاريخ الإسلام، 45/46 ؛ السبكي: طبقات الشافعية، 81/5.

حظيت العلوم العقلية بعناية واسعة من قبل العلماء العرب المسلمين على مر العصور الإسلامية، ومنها العصر الأيوبي، وذلك لأهمية هذه العلوم لحياتهم الدينية والاجتماعية والاقتصادية والصحية وغيرها، لذلك قام العلماء العرب بالإطلاع على ما عند الأمم الأخرى من علوم ومن ثم بترجمتها وأضافوا إليها الكثير. ومع ذلك فان الاعتناء بالعلوم العقلية كان أقل شأناً مقارنةً بالعلوم الدينية واللغوية، لأن الظروف التي حاقت بالشام ومصر في العصر الأيوبي، والمتمثلة بالحروب الصليبية حتمت على العرب المسلمين إعطاء الأهمية الأكبر لعلومهم ؛ لأنها تعمق إيمانهم بعقيدتهم وجهادهم ضد الأعداء[1].

ويلاحظ أن كثير من العلماء قد صرف النظر عن الاشتغال بالفلسفة والمنطق لأنها لقيت مقاومة شديدة من رجال الدين وإعراضاً من السلاطين. أما علوم الطب والصيدلة والرياضيات فقد لقيت كل التشجيع، فكثر الإقبال عليها، وأخذ العلماء منها بحظ وافر[2].

1. علم الطب والصيدلة:

الطب: هو علاج الجسم والنفس[3]، وهو "علم نظري وعملي أباحت الشريعة علمه وعمله، لما فيه من حفظ الصحة ودفع العلل والأمراض عن هذه البنية البشرية"[4]، ويعرفه ابن خلدون على أنه "علم ينظر في بدن الإنسان من حيث يمرض ويصح فيحاول صاحبها حفظ الصحة وبرء المرض بالأدوية والأغذية بعد أن يتبين المرض الذي يخص كل عضو من أعضاء البدن وأسباب تلك الأمراض التي تنشأ عنها وما لكل مرض من الأدوية..."[5].

لقد ظهر في بلاد الشام في العصرين الزنكي والأيوبي عدد كبير من الأطباء الذين كان لهم إسهام في تطور الطب، ولم يقتصر هذا في بلاد الشام فقط بل انتقلوا إلى خارجها، فكانت مصر إحدى هذه البلدان التي ساهم بها علماء الشام في المجال الطبي[6].

وكان الأيوبيين يهتمون بالطب والأطباء منذ عهد السلطان صلاح الدين، حيث بدأ هذا الاهتمام باتخاذه مارستاناً أو بيمارستاناً[7] ضخماً في القاهرة[8]. فبلغ الطب في مصر في العصر الأيوبي مستوى متقدم، كما تطورت وسائل دراسته، وزخرت مكتبات البلاد بمختلف المصنفات الطبية التي تعالج حالات مرضية مختلفة، ولعل هذا التطور يعود إلى استمرار الحروب الصليبية، وما تتطلبه من تحشيدات ومنها الجانب الطبي، فضلاً عن حاجة المجتمع المصري بصورة عامة والبلاط السلطاني على وجه الخصوص لخدمات الأطباء بمختلف اختصاصاته الطبية[9].

([1]) خلف: الحياة العلمية، 104.

([2]) باشا: أدب الدول المتتابعة، 167.

([3]) ابن منظور: لسان العرب، 2630/29 ؛ الفيروز آبادي: القاموس، 96/1.

([4]) الشيزري: نهاية الرتبة، 97.

([5]) المقدمة: 531.

([6]) الزبيدي: الرحلات العلمية، 109.

([7]) البيمارستان: ويقال له المارستان، كلمة فارسية مركبة من كلمتين (بيما) بمعنى مريض و(ستان) بمعنى المكان أو دار و تعريبها: بيت المرضى وهو يقال له اليوم المستشفى.ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء،47؛ احمد عيسى بك: تاريخ البيمارستانات في الإسلام ، المطبعة الهاشمية ،(دمشق ،1939) ، 4.

([8]) ابن الأثير: الكامل، 441/11 ؛ البنداري: سنا البرق، 120 ؛ سبط بن الجوزي: مرآة الزمان، 339/8؛ أبو شامة: الروضتين، 294/2 ؛ ابن واصل: مفرج الكروب، 55/2 ؛ الحنبلي: شفاء القلوب، 189.

([9]) عمر رضا كحالة: العلوم العملية عند العرب، المطبعة التعاونية، (دمشق، 1972)، 64.

وقد اتصلت صناعة الطب بالبيمارستانات التي أنشئت لأغراض التجارب الطبية[1]، ولتعليم الطلاب الطب، ووصف الأمراض وطرق معالجتها. وهذا ما جعله مكاناً للتدريب العملي وللدراسة النظرية، ليتخرج منها المتطببون والجراحون والكحالون[2].

وأما الصيدلة فهي علم يبحث عن التمييز بين النباتات المتشابهة في الشكل ومعرفة منابتها... و جيدها من رديئها، و خصائصها والفائدة منها"[3]. وعرف علم الصيدلة بأسماء مختلفة منها علم العقاقير، وعلم الأدوية، وغير ذلك، وكان من الصعب فصل علم الصيدلة عن الطب، حيث كان الطبيب يتفحص المرضى ويشخص حالاتهم ثم يصف العلاج الذي يقوم بتحضيره بنفسه[4]. وبمرور الوقت أخذ الطب ينفصل عن الصيدلة وأصبح كل علم قائماً بنفسه[5]، نتيجة ازدياد أنواع العقاقير، وتشعب طرق تركيبها[6] ، ازداد نشاط الصيادلة في البحث عن أنواع جديدة من النباتات من أجل توفير الأدوية، واكتشاف ما هو ضار أو مفيد منها، وألفوا الكتب عن الأدوية وطرق تركيبها وفوائدها، وقد شهد العصر الأيوبي بروز عدد من الصيادلة الذين أسهموا في تطور علم صناعة الأدوية في بلاد الشام ومصر[7]. وأبرز من انتقل من الشام إلى مصر وعمل فيها في مجال الطب والصيدلة في العصر الأيوبي:

- مهذب الدين أبو سعيد بن أبي سليمان بن أبي المنى بن أبي فانه المقدسي، ينحدر من أسرة طيبة من نصارى القدس، قرأ الطب على يد أبيه وغيره من أطباء الشام، اشتغل بالطب، ثم انتقل إلى مصر وخدم السلطان صلاح الدين والملك العادل أيضاً، واستمرت إقامته بمصر إلى أن توفي فيها سنة (613هـ/1216م)[8].
- موفق الدين أبي شاكر بن أبي سليمان المقدسي، درس الطب على يد أخيه مهذب الدين أبي سعيد، وقد لفتت مهارته الطبية نظر الملك العادل فضمه إلى حاشيته ثم جعله في خدمة ولده الملك الكامل بمصر، وكانت له منه أقطاعات وضياع وغيرها حتى غدا أحد أبرز أطباء مصر في ذلك الوقت، توفي بالقاهرة سنة (613هـ/1216م)[9].
- جمال الدين عثمان بن هبة الله بن أحمد المعروف بابن أبي الحوافر، اشتغل على يد علماء الطب في عصره، وخدم الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين، وانتقل معه الى مصر وولاه رئاسة الطب بها، واشتغل عليه جماعة من أطباء مصر، وخدم الملك الكامل، وصنف كتاباً مختصراً في الطب، توفي سنة (619هـ/1222م)[10].
- مهذب الدين أبو محمد عبد الرحيم بن علي بن حامد الدمشقي، المعروف بالدخوار، كان قد فات أهل زمانه في صناعة الطب، ويُعد أحد أعلام الطب زمن الدولة الأيوبية، وتردد إلى البيمارستان الكبير في دمشق وأخذ بتدريس صناعة الطب، ثم انتقل إلى مصر وساهم بقسط وافر وجهد عظيم في صناعة الطب بشقيه المهني العملي والبحثي النظري مما جعله يتبوأ مكانة مرموقة ومعيشة هنيئة، حتى وصل إلى

([1]) سيد الأهل: أيام صلاح الدين، 128.

([2]) عيسى بك: تاريخ البيمارستانات، 3-4 ؛ الحسين: موسوعة الحضارة ،214.

([3]) خليفة: كشف، 1085/2.

([4]) محمد كامل حسين: الموجز في تاريخ الطب والصيدلة، د.ن، (طرابلس، د.ت)، 270-272.

([5]) زيغريد هونكة: شمس العرب تسطع على الغرب، ترجمة: فاروق بيضون وآخرون، ط2، المكتب التجاري للطباعة والنشر، (بيروت، 1969)، 320.

([6]) حسين: الموجز، 272 ؛ المياحي: الحركة الفكرية، 192.

([7]) الزبيدي: الرحلات العلمية، 120-121.

([8]) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، 589.

([9]) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، 589-590 ؛ الصفدي: الوافي، 15/16. كحالة: الموجز، 270-272.

([10]) المنذري: التكملة، 117/5-118 ؛ ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، 584-585 ؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، 520/44 ؛ الترمانيني: أحداث التاريخ الإسلامي، 760/3.

منصب رئاسة الأطباء بالشام ومصر، وقصده عدد من الطلبة لينهلوا من علمه، ومن تصانيفه اختصار كتاب (الحاوي) للرازي، وكتاب (الجنينة) وتعاليق ومسائل في الطب، ثم عاد إلى الشام وتوفي بدمشق سنة (628هـ/1230م)[1].

- رشيد الدين أبو المنصور بن أبي الفضل علي الصوري، كان بارعاً بصناعة الأدوية المفردة وماهيتها واختلاف أسمائها وصفاتها وخصائصها، ويعد من خيرة العشابين في الشام في ذلك العصر، وعمل بخدمة الملك العادل وابنه المعظم الذي رحل معه إلى مصر، والتقى هناك بالشيخ أبي العباس بن الرومية أحد المهتمين بعلم الأدوية، وتباحث معه في موضوع النباتات والأدوية وانتفع به الناس، وألف كتاباً سماه (الأدوية المفردة)، توفي سنة (639هـ/1241م)[2].
- أبو الفضل بن أبي سليمان بن أبي المنى المقدسي، كان أصغر أخوته، عمل بصناعة الطب، وكان طبيباً للملك المعظم بالكرك، ثم خدم الملك الكامل بمصر، وتوفي فيها سنة (644هـ/1246م)[3].
- رشيد الدين أبو سعيد بن الموفق يعقوب المقدسي، من أعيان الأطباء وعلمائهم المشاهير، درس الطب في الشام على يد علماء العصر آنذاك، انتقل إلى مصر فعمل في خدمة الملك الكامل، ثم بعده الملك الصّالح نجم الدين أيوب، توفي سنة (646هـ/1248م)[4].
- فتح الدين أبو الفتح أحمد بن عثمان الدمشقي، المعروف بابن أبي الحوافر، سمع الطب عن أبيه وبرع في الطب، حتى صار رئيس الأطباء بمصر، توفي سنة (657هـ/1258م)[5].
- نجم الدين أبي زكريا يحيى اللبودي الحلبي، اشتغل بصناعة الطب في دمشق واعتمد عليه صاحب حمص الملك المنصور إبراهيم بن أسد الدين شيركوه، وبعد وفاته انتقل نجم الدين إلى مصر، وعمل بخدمة الملك الصالح نجم الدين أيوب مدة، ثم عاد إلى الشام وأنشأ بها مدرسة طبية، توفي سنة (666هـ/1267م)[6].
- موفق الدين أبي العباس أحمد بن القاسم بن خليفة الدمشقي، المعروف بابن أبي أصيبعة، ويعد من أشهر الأطباء، وكان والده أمهر الكحالين (أطباء العيون) فأخذ عنه الطب، ثم انتقل إلى مصر ودرّس الطب دراسة قيمة في القاهرة في البيمارستان الناصري وهو صاحب كتاب (عيون الأنباء في طبقات الأطباء) الذي صنفه سنة 643هـ/1245م، ومن كتبه أيضا (التجارب والفوائد) و(حكايات الأطباء في علاجات الأدواء)، توفي سنة (668هـ/1269م)[7].
- رشيد الدين أبو الوحش بن أبي الخير بن أبي سليمان المعروف بأبي حليقة، درس الطب في الشام على يد عمه مهذب الدين أبي سعيد، ومهذب الدين الدخوار، انتقل إلى مصر سنة 609هـ/1212م، وتميز بصناعة الطب بعد أن حفظ (الفضول) و(تقدمة المعرفة) لابقراط وعمل في البيمارستان الناصري، واهتم بصناعة الأدوية أيضاً،

([1]) سبط بن الجوزي: مرآة الزمان، 672/8 ؛ ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، 728، 731-732 ؛ الصفدي: الوافي، 233/18-234 ؛ غانم عبد الله خلف: "مهذب الدين الدخوار رئيس الأطباء في عهد الأيوبيين 565-628هـ"، مجلة آداب الرافدين، العدد (27)، كلية الآداب، جامعة الموصل، (1995)، 310-312، 315.

([2]) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، 699-703.

([3]) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، 590.

([4]) الذهبي: تاريخ الإسلام، 334/47.

([5]) الذهبي: تاريخ الإسلام، 312/48.

([6]) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، 663-664 ؛ الكتبي: عيون التواريخ، 429/20.

([7]) بدوي: الحياة العقلية، 321-322 ؛ عيسى بك: تاريخ البيمارستانات، 81 ؛ الزركلي: الأعلام ،197/1.

ونجح في صنع ترياق ذي فاعلية عالية في علاج المريض بسرعة وله كتاب في الأدوية المفردة سماه (المختار في الألف عقار) و(كتاب في الأمراض وأسبابها وعلاماتها ومداواتها بالأدوية المفردة والمركبة المجربة)، وخدم أبي حليقة الملك الكامل وابنه الصالح نجم الدين أيوب، ثم ابن الصالح المعظم تورنشاه، وخدم في دولة المماليك أيضاً، توفي سنة (670هـ/1271م)[1].

- شمس الدين محمد بن إبراهيم الدمشقي، المعروف بالكلي، درس الطب على يد مهذب الدين الدخوار في الشام، وحفظ كتب الأوائل التي يحفظها المشتغلون بالطب، وحفظ الكتاب الأول من (القانون) ولذلك سمي الكلي، انتقل إلى مصر وعمل في البيمارستان الناصري وبقى مدة يعالج المرضى ويدرس الطب فيه إلى أن توفي سنة (675هـ/1276م)[2].
- علاء الدين علي بن أبي الحزم الدمشقي، المعروف بابن النفيس، لم يكن في العصر من يضاهيه في الطب والعلاج والعلم كما تذكر المصادر، درس الطب على يد مهذب الدين الدخوار، ثم انتقل إلى مصر، واشتغل طبيباً في البيمارستان الناصري وانتشرت عنه التلاميذ، وصار رئيس الأطباء بمصر، ويعد أول مكتشف للدورة الدموية الصغرى، وله تصانيف عديدة في الطب منها: (الشامل في الطب) و(الموجز) و(شرح القانون) لابن سينا، و(شرح مسائل حنين) و(شرح فصول ابقراط)، توفي بالقاهرة سنة (687هـ/1288م)[3].

2. علم الكلام والفلسفة:

علم الكلام هو: "ملكة يقتدر بها الإنسان على نصرة الآراء والأفعال المحدودة التي صرح بها واضع الملكة وتزييف كل ما خالفها بالأقاويل"[4]. أما ابن خلدون فيعرف هذا العلم على أنه "علم يتضمن الحجاج عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية والرد على المبتدعة المنحرفين في الاعتقادات عن مذاهب السلف وأهل السنة. وسر هذه العقائد الإيمانية هو التوحيد"[5]. وقد استند هذا العلم على النقل والعقل في آن واحد لأن المتكلم يعتمد في منهجه على النصوص الدينية فضلاً عن استنتاجه العقلي[6]، ويعد القرآن الكريم المصدر الأساس الذي استمد منه علماء الكلام الكلام مادتهم، ولما كان علم الكلام يعتمد على العقل ؛ لذلك شكل مدخلاً لظهور الفلسفة الإسلامية البحتة[7]، والفلسفة مشتقة من كلمة يونانية معناها حب الحكمة[8]. فتكون دراسة الفيلسوف للموضوع دراسة لا ترتبط بدين، وتبدأ عادة بالشك في الأشياء، ثم يتدرج هذا الشك حتى يصل لليقين[9].

إن أغلب من اشتغل بالكلام كان من رجال الدين والفقهاء[10]، وعلى الرغم من اتهام المتكلمين للفلاسفة بالكفر والإلحاد إلا أن هذا لم يمنع من تأثير أحدهما بالآخر، لأن الفلاسفة لم

([1]) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، 590-597 ؛ بدوي: الحياة العقلية، 321.
([2]) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، 755.
([3]) الكتبي: عيون التواريخ، 429/21 ؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، 377/7.
([4]) محمد بن محمد الفارابي: إحصاء العلوم، تحقيق:عثمان أمين، ط3،مكتبة الأنجلو المصرية، (القاهرة، 1968)، 113.
([5]) المقدمة: 494.
([6]) ابن خلدون: المقدمة، 500.
([7]) جب: دراسات ،260، 269؛ عاشور وآخرون: دراسات، 94.
([8]) الفارابي: إحصاء، 140 ؛ الخوارزمي: مفاتيح، 79.
([9]) ابن خلدون: المقدمة، 551-552.
([10]) ابن شداد: النوادر، 10.

يتجرؤا على التنكر لتعاليم الإسلام ومبادئه[1]. ولذا اشترط ابن خلدون في المتكلم ان يكون ذا معرفة بالفلسفة وخصائص الأشياء بقدر معرفته بالدين[2]. وبذلك يكون الترابط بين العلمين واضحاً، فلا يمكن دراسة علم الكلام دون الفلسفة والعكس كذلك، فلا يمكن الفصل بينهما[3]. لم يظهر هذا العلم بظهور الإسلام، ولكنه ظهر لما انتشر الإسلام بين الشعوب المتحضرة[4].

وفي العصر الأيوبي في مصر والشام، ابتعد العلماء عن الاشتغال بالعلوم الفلسفية لأنها لقيت مقاومة شديدة من رجال الدين وإعراضاً من السلاطين[5].فالسلطان صلاح الدين "كان مبغضاً للفلاسفة... ومن يعاند الشريعة ولقد أمر ولده صاحب حلب الملك الظاهر غازي بقتل شاب نشأ يقال له شهاب الدين يحيى بن محمد السهروردي، قيل عنه انه كان معانداً للشرائع مبطلاً... فقتله وصلبه سنة(587هـ/1191م)"[6].

ولم يعثر في دمشق على مدارس تختص بالطبيعيات والفلسفة، لكره الاتابكة ومن بعدهم الأيوبيين لأصحاب تلك العقائد، الأمر الذي اضطرهم إلى عدم الظهور سياسياً وثقافياً في أوقات الشدة[7]، فانعكس الحال على مصر أيضاً في العصر الأيوبي. وقد ترتب على سياسة الأيوبيين هذه في مصر تجاه الفلسفة والفلاسفة أن تأخرت العلوم الفلسفية فيها في هذا العصر، على الرغم من ازدهارها في العصر الفاطمي[8].

وعلى الرغم من الحملة التي قادها العلماء والسلاطين والأمراء ضد الفلسفة والفلاسفة والمتكلمين، إلا أن هذا لايمنع من وجود بعضهم، ممن وجدوا متنفساً وبيئة تثمر بها علومهم الفلسفية[9]، وتذكر المصادر التاريخية بعض الأسماء التي قدمت من الشام إلى مصر لتعمل في علم الكلام والفلسفة بالخفاء، حيث لم يتخصصوا في هذا المجال فحسب، بل نجد منهم الفقهاء والأطباء وغيرهم، ممن عمل خلف الجدران حتى لا يكون عرضة للقمع من قبل السلطنة[10]. ومن أبرز هؤلاء ممن رحل من الشام إلى مصر:

- تقي الدين أبو محمد عبد الغني بن عبد الواحد بن سرور المقدسي، تفقه على المذهب الحنبلي في الشام وبغداد وغيرها من البلاد، انتقل إلى مصر بعد أن دخل في خلاف مع فقهاء دمشق وصار يقرأ الحديث في مصر، فأفتى فقهاء مصر بإباحة دمه، وكتبوا إلى الصفي بن شكر وزير العادل على أنه أفسد عقائد الناس ويذكر التجسيم على رؤوس الأشهاد، فطلب الوزير من والي مصر أن ينفيه إلى المغرب، فمات تقي الدين قبل وصول الكتاب سنة (600هـ/1203م)[11].
- سيف الدين أبو الحسن علي بن محمد، المعروف بالآمدي الحنبلي ثم الشافعي، درس القراءات وعلوم الأوائل بأمد، والشام، وتبحر بالعلوم، وتفرد بعلم المعقولات والمنطق والكلام، ثم تصدر لأقرأ الفلسفة والمنطق بمصر بالجامع الظافري، وأعاد بقبة الشافعي، وانتفع به الناس، وصنف التصانيف ثم قام عليه الفقهاء ورموه بانحلال

([1]) ابن خلدون: المقدمة، 551-552.
([2]) المقدمة، 556.
([3]) الزبيدي: الرحلات العلمية، 126.
([4]) ماجد: تاريخ الحضارة، 179.
([5]) باشا: أدب الدول المتتابعة، 167 ؛ سلام: الأدب في العصر الأيوبي، 94.
([6]) الحموي: معجم الأدباء ، 19/314-316؛ ابن شداد: النوادر، 10 ؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان ،6/268-273؛ الحجازي وآخرون: النجوم الزاهرة، 115.
([7]) شميساني: مدارس دمشق، 35.
([8])بهجت: أثر الحضارة السلجوقية، 139/1.
([9]) سلام: الأدب في عصر صلاح الدين، 103.
([10]) السبكي: طبقات الشافعية، 108/8 ؛ السيوطي: حسن المحاضرة، 541/1.
([11]) أبو شامة: الذيل، 69-70 ؛ الذهبي: تذكرة الحفاظ، 4/1372-1374 ؛ ابن رجب: الذيل، 19/2.

عقيدته وبالفلسفة وكتبوا به محضراً بذلك، وحمل إلى بعضهم ليكتب فيه مثل ما كتبوا فكتب:

حسدوا الفتى إذ لم ينالوا سعيه فالقوم أعداء له وخُصُومُ

فخرج من مصر إلى الشام، واستقر بدمشق حتى توفي سنة (631هـ/1233م)[1].

- نجم الدين أبي زكريا يحيى اللبودي الحلبي، كان قد درس علوم الحكمة من منطق وفلسفة حتى إتقانها، وانتقل إلى مصر واتصل بالملك نجم الدين أيوب وعمل عنده والتقى بعدد من العلماء البارزين هنالك، وتباحث معهم في هذا العلم، ومن تصانيفه مختصر (الاشارات) و(المناهج القدسية في العلوم الحكمية) وغيرها، توفي بدمشق سنة (666هـ/1267م)[2].
- جمال الدين محمد بن سالم بن واصل الحموي، تعلم علم أصول الدين والكلام والفلسفة والمنطق، في حماة مسقط رأسه، ثم انتقل الى مصر فعمل في خدمة الملك الصالح نجم الدين أيوب، ثم خدم الظاهر بيبرس في العصر المملوكي، الذي بعثه إلى صقلية في مهمة لدى حاكمها فجرت هناك بينه وبين علمائها مناقشات فلسفية، من تصانيفه (نخبة الفكر) في المنطق و(هداية الألباب)و(خفاية الأفكار) وغيرها، توفي في حماة سنة (697هـ/1297م)[3].

3. الرياضيات:

هو "علم بأحوال ما يفتقر من الوجود الخارجي دون التعقل الى المادة كالتربيع والتثليث والتدوير والعدد وخصائصه"[4]. وقد اعتنى العلماء المسلمين بعلوم الرياضيات عناية كبيرة لحاجتهم إليها في تسيير حياتهم اليومية من عبادة وحساب ومواريث وفرائض وأعمال تجارية وجباية خراج وضبط نفقات الجيش وغيرها، ويتفرع من علوم الرياضيات، الحساب، والهندسة والفلك[5].

فأما علم الحساب فهو "علم بقواعد تعرف بها طرق استخراج المجهولات العددية من المعلومات العددية..."[6]. أما ابن خلدون فيعرفه على أنه: "صناعة علمية في حساب الأعداد بالضم (جمع) والتفريق (طرح)... والتضعيف (ضرب)... والأفراد (قسمة)..."[7].

ويعد علم الحساب الدعامة الأساسية لعلم الرياضيات، لذا اعتنى به علماء المسلمين وعدوه أهم فرع من فروع العلوم البشرية[8]. ومن أشهر الحسابين الذين ذهبوا إلى مصر:

- نجم الدين اللبودي الحموي، من علماء الشام برع بعلم الحساب والفرائض والجبر، انتقل إلى مصر ودرس فيها علم الحساب وانتفع به الناس، ثم عاد إلى الشام ومن تصانيفه:

([1]) المنذري: التكملة، 90/6-91 ؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان، 293/3-294 ؛ الذهبي: سير، 69/14-70 ؛ الآسنوي: طبقات، 137/1-138 ؛ ابن كثير: البداية والنهاية، 140/13-141 ؛السيوطي: حسن المحاضرة، 541/1 ؛ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، 144/5-145.

([2]) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، 663-664 ؛ بدوي: الحياة العقلية، 300-301.

([3])عماد الدين إسماعيل أبو الفدا:المختصر في أخبار البشر، دار الكتاب اللبناني،(بيروت، 1960)،38/4.

([4]) التهانوي: كشاف، 59/1 ؛ صديق بن حسن القنوجي: أبجد العلوم الوشي المرقوم في بيان أحوال العلوم، تحقيق: عبد الجبار رزكار، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، (دمشق، 1978)، 307/2.

([5]) باشا: أدب الدول المتتابعة، 170 ؛ السامرائي: دراسات، 337 ؛ بدوي: الحياة العقلية، 299.

([6]) القنوجي: أبجد العلوم، 238/2.

([7]) المقدمة، 520 ؛ وينظر القنوجي: أبجد العلوم، 238/2.

([8]) الزبيدي: الرحلات العلمية، 134.

(كافية الحساب في علم الحساب) و(الرسالة المنصورية في الأعداد الوقفية) و(الرسالة الكاملة في علم الجبر والمقابلة)، توفي سنة (666هـ/1267م)[1].

أما الهندسة فهي "العلم الذي يفحص في الخطوط وفي السطوح وفي المجسمات على الإطلاق على أشكالها ومقاديرها وتساويها وتفاضلها وعن أصناف أوضاعها وترتيبها وعن جميع ما يلحقها مثل النقط والزوايا وغير ذلك..."[2].

وظهرت الحاجة إلى علم الهندسة في بناء الحصون والقلاع والمنازل وغيرها[3]، ولعلم الهندسة أهيمته عند علماء الشام، لهذا عملوا على تطويره بالبحث والتطبيق نظرياً وعملياً، وكانت الآثار التي خلفوها في المدن والقلاع والسدود دليلاً على براعتهم الهندسية، وبرز عدد من المهندسين في الشام في العصرين الزنكي والأيوبي، وانتقل عدد منهم إلى بلدان أخرى ومنها مصر، إما لغرض الدراسة أو لوضع مخططات هندسية في البلاد التي انتقلوا إليها[4]. ومن هؤلاء:

- جمال الدين محمد بن سالم بن واصل الحموي، من علماء الشام البارزين، درس عدة علوم ومن بينها علم الهندسة، درَّس علم الهندسة بحلب ثم انتقل إلى مصر في عهد الملك الصالح نجم الدين أيوب وفي تلك الأثناء التقى بعلماء بارزين بعلم الهندسة، فأخذ منهم وأخذوا منه ، توفي سنة (697هـ/1297م)[5].

أما الفلك فهو "علم ينظر في حركات الكواكب الثابتة والمتحركة ويستدل بكيفيات تلك الحركات على أشكال وأوضاع للأفلاك لزمت عنها هذه الحركات المحسوبة بطرق هندسية"[6]، هندسية"[6]، ولعلم الفلك مسميات أخرى منها: (علم الهيئة)، و(علم النجوم)، أما الشخص الذي يزاول هذه المهنة فيسمى بـ (الفلكي)[7].

لم يكن الفلك علماً جديداً بالنسبة للعرب بدليل اهتمامهم بالتنجيم وربطه بحركة الكواكب والنجوم والاستدلال بالنجوم للسير براً وبحراً، منذ عصور ما قبل الإسلام، فكان لهم إطلاع على بعض الأمور الفلكية، ولما جاء الإسلام اهتم العرب المسلمين بعلم الفلك أكثر من ذي قبل من أجل كشف الكثير من الأمور الفلكية التي كانت غير واضحة لديهم فكشف القرآن الكريم ذلك الغموض وأزال إبهامه، وقد شهد العصر الأيوبي اهتماماً بالعلوم الفلكية كباقي العصور الإسلامية الأخرى[8]. ومن أبرز العلماء في هذا الشأن:

- مهذب الدين عبد الرحيم الدخوار، من علماء الشام المعروفين أجاد عدد من العلوم العقلية، واعتنى بعلم الفلك في الشام، ثم انتقل إلى مصر، وجمع العديد من الآلات الفلكية النحاسية التي ساعدته في دراسة هذا العلم، توفي سنة (628هـ/1230م)[9].
- جمال الدين محمد بن سالم بن واصل الحموي، برع بالعلوم الفلكية أيضاً، انتقل إلى مصر وتجلت براعته في مصر عندما قام بالتعاون مع العالم الرياضي علم الدين قيصر المتوفى سنة(649ه/1251م)، برسم خارطة الكواكب على كره من الخشب للملك تقي

([1]) ابن أبي اصيبعة: عيون الأنباء، 663-668.
([2]) الفارابي: إحصاء، 96 ؛ ابن خلدون: المقدمة، 523 ؛ خليفة: كشف الظنون، 2046/2.
([3]) عمر فروخ: تاريخ العلوم عند العرب، ط3، دار العلم للملايين، (بيروت، 1980)، 27.
([4]) الزبيدي: الرحلات العلمية، 138.
([5]) ابن الوردي: تاريخ ابن الوردي، 349/2 ؛ بدوي: الحياة العقلية، 280-281.
([6]) الخوارزمي: مفاتيح، 125 ؛ ابن خلدون: المقدمة، 525.
([7]) الباشا: الفنون الإسلامية، 826/2.
([8]) خليفة: كشف الظنون، 1930/2-1931 ؛ عاشور وآخرون: دراسات، 110.
([9]) ابن أبي اصيبعة: عيون الأنباء، 733 ؛ الكتبي: فوات الوفيات، 316/2.

الـدين عمـر، واختصـر كتـاب (المجسـطي) لبطليمـوس فـي الفلـك، تـوفي سـنة (697هـ/1297م)[1].

(1) السيوطي: بغية الوعاة، 108/1 ؛ بدوي: الحياة العقلية، 280-281 ؛ الزركلي ، الأعلام ، 210/5.